المملكة العربية السعودية

مرافق الحج

والخدمات المدنية للحجاج

في الأراضي المقدسة

منذ السنة الثامنة من الهجرة حتى سقوط الخلافة العباسية

تأليف

الدكتور سليمان عبد الغني مالكي

الرياض ١٤٠٨ - ١٩٨٧م

٣٨ - مطبوعات دارة الملك عبد العزيز

اهداءات ١٩٩٤

المملكة العربية

السعودية

مرافق الحج

والخدمات المدنية للحجاج

في الأراضي المقدسة

منذ السنة الثامنة من الهجرة حتى سقوط الخلافة العباسية

تأليف

الدكتور سليمان عبد الغني مالكي

الرياض ١٤٠٨ - ١٩٨٧ هـ

٣٨ - مطبوعات دارة الملك عبد العزيز

بسم الله الرحمن الرحيم

اهــــداء

اهدى خلاصة هذا الكتاب الى روح والدى اعترافاً وتقديراً على حسن صنيعه معى تربية وتعليماً وسلوكاً. . .

فإليه يرجع الفضل الكبير بعد الله فى استمرار مراحلى التعليمية تحصيلاً ودراسة حتى فاضت روحه الغالية إلى بارئها. . .

أسـأل الله سبحانه أن يتغمده بواسع فضله وأن يحوطه بشآبيب رحمته ويسكنه فسيح جناته. . .

«د. سليمان عبدالغنى مالكى»

تقديـــم

الحمـد لله رب العالمين. . والصلاة والسلام على رسوله الأمين. . وبعد، فلقد شرف الله الكعبـة، وجعلهـا بيته الحرام. . بيتا آمنا تهوى إليه الأفئدة من كل فج وصـوب. . منذ رفع قواعده الخليل إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام. . وعلا صوت الخليل مناديا الناس بالحج. . وقد هيأ الله لها من خلقه من وقفوا أنفسهم على خدمتهـا. . وخـدمة الوافدين إليها. . واعتبروا آداءهم لهذه الخدمة شرفا ما بعده شرف. . وتلك من أعظم وأجل حكم الله، ولطفه بخلقه. . تُرَى ماذا كان يحدث لو اجتمع الناس في مكان قاحل. . ليس به ماء ولا زرع ولا ضرع. . وفي زمن معين. . وكثر عددهم حتى ضاق بهم المكان. . على اتساعه. . وشح الماء وندر الطعام. . ولفحتهم الشمس وقت الهجير. . حتى زاغت الأبصار من شدة الظمأ. . ؟!. . لا ريب ـ والحال هذه ـ أنه لن يحدث غير الهلاك والموت المحقق. . لضيوف أقبلوا من كل فج عميق. . وإذا كان مآل الضيافـة هكـذا. . فهل يمكن أن يقال إنه بيت آمن. . سبحانك ربي ما ألطفك بعبيدك !!. وما أكرمك حين هيأت لهذا البيت، وللوافدين عليه. . من يقومون بخدمته. . وخدمة ضيوف الرحمن. . بل اعتبر ذلك من أشرف الأعمال لدى ذوى الهمم العالية. .

وتاريخ هذه الخدمات، يبدأ من قصى بن كلاب. . الجد الأعلى للرسول صلى الله عليه وسلم. . والذى يعتبر أول من وضع أسس تلك الخدمات ممثلة في الحجابة، والسقاية والسدانة، والرفادة، بالإضافة إلى اللواء، والندوة، وقد توارثها أبناؤه من بعـده، حتى جاء الـرسـول صلى الله عليه وسلم. . فأبقى على الحجابة والسقاية والسدانة. . وألغى ما عدا ذلك من خدمات، اكتفاء بما يقدم من لحوم الأضاحى والهدى. .

ولقـد تبارى حكام المسلمين في توفير الخدمات للحجاج من مأكل، ومشرب، ومسكن، وإحلال وسائل الأمن. . خلال تنقلاتهم فيما بين الأماكن المقدسة، إلى عودتهم لبلادهم آمنين. .

ولا شك أن تسليط الأضواء على ذلك من خلال هذه الدراسة التى قام بها الأخ الدكتور سليمان عبدالغني مالكي. . لموضوع «مرافق الحج والخدمات المدنية للحجاج في الأراضي الإسلامية المقدسة. . منذ السنة الثامنة حتى سقوط الخلافة العباسية» عام ٦٥٦هـ. . لأمر مهم، إذ الموضوع طريف في بابه، حيث لم تفرد له دراسة خاصة به من قبل، ولأن التاريخ لتلك الأماكن، وحصر تلك الخدمات، ومعرفة أنواعها وأحجامها ووسائلها وتطورها في كل عهد وعصر، هو أمر ذو أهمية، لمعرفة كيفية استمرار تلك الخدمات بعد مجيء الإسلام. . ومدى اهتمام حكام المسلمين بها. . وبرعاية الأماكن المقدسة، وتوفير الأمن لحجاج بيت الله. . وتوفير المأكل، والمشرب، والإقامة وغير ذلك من خدمات. .

وسنـدرك على ضوء تلك الـدراسة مدى الجهد، ومدى ضخامة الخدمات التى قدمت وتقدم لضيوف الرحمن فى عهدنا الحاضر الميمون. . ومدى الاهتمام والعناية الفائقة بالحرمين الشريفين. . والأماكن المقدسة، من توسيعات متتالية، وانشاءات للمرافق هائلة، ولسنا في مجال عقد مقارنة. . بين ما قدم ويقدم. . أو بين ماض، وحاضر، فحاشالله أن نتطاول على أسلافنا. . الذين نعتز بهم ونفخر، مهما شمخت الأعمال في الوقت الحاضر لخدمة الحرمين الشريفين. . وخدمة ضيوف الرحمن وما نملك إلا أن نحمد الله ونشكره على أن وفق ولاة الأمر إليه، وهيأ لهم أسبابه، كما ندعو الله لذوى الهمم العالية، حكام هذه البلاد، بالمغفرة والرحمة لمن رحل عن الدنيا وبالعز والتوفيق لخادم الحرمين الشريفين الملك فهد وولي عهده. . فقد دأبوا جميعهم على تقـديم هذا العطاء. . دون ملل، وجعلوا من اتصافهم بأنهم خدام بيت الله الحرام مصدر عز وفخر. . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. .

المقدمة

حمدا لمن جعل مكة مهوى أفئدة المؤمنين، تحقيقا لدعوة إبراهيم وشرفها بمبعث خاتم المرسلين ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبعد فهذا البحث يتناول المرافق والخدمات المدنية التى قدمت للحجاج في الأراضى الإسلامية المقدسة منذ السنة الثامنة من الهجرة وحتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد سنة ٦٥٦هـ ، وهى حقبة زمنية تمتد الى ما يقرب من ستمائة وثمانية وأربعين عاما .

ويرجع اختيارى لهذا الموضوع، ومحاولتى القاء الضوء على جميع جوانبه المختلفة الى أن أغلب المؤرخين الذين أرخوا للدولة الإسلامية لم يتعرضوا بشيء من التفصيل لتاريخ هذه المرافق والخدمات، وأهميتها بالنسبة للحج والأماكن المقدسة، فقد اقتصروا على الإشارة لهذا الموضوع إشارات وجيزة في ثنايا حديثهم عن الأمور السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية في الدولة الإسلامية وندرة الحديث على هذا النحو عن مرافق الحج وخدمات الحجاج في الأماكن المقدسة جعلنى أجد صعوبة بالغة في جمع شتات مادتي العلمية، كما جعلنى التزم الدقة والحذر في قراءة النصوص القليلة الواردة في هذه المصادر حتى أتمكن التقاط حقيقة شاردة أو استخلاص أية حقائق تتصل بهذا الموضوع تكون قد وردت على لسان المؤرخين في حديثهم عن شتى أمور الدولة الإسلامية .

فالباحث في موضوع خدمات الحجاج ومرافق الحج يجد لزاما عليه أن يسير بتعمق في أعماق المصادر مستخرجا النصوص، دارسا إياها ومتتبعا لها من بدايتها إلى نهايتها كى يستطيع أن يعرف النص الصادق فيأخذه من بين كثير ركام وطويل كلام، مبعثرا

ومشتتا ما بين مصادر التاريخ الإسلامي العام ومصادر تاريخ مصر ومصادر تاريخ اليمن.

وفي هذا البحث الشاق وراء المادة العلمية للموضوع كان على أن أتتبع مرافق الحج والخدمات التى كانت تقدم الى الحجاج وكذلك العوامل المختلفة التى كانت تدفع الخلفاء وأمراء الحج والسلاطين إلى العناية بهذه المرافق وتقديم هذه الخدمات للحجاج.

ونظرا لارتباط الموضوع بالحج إلى الأماكن المقدسة منذ العصر الجاهلى، لهذا اضطررت إلى تقسيم هذا الموضوع إلى أربعة فصول.

خصصت الفصل الأول للحديث عن مكة والمدينة فى العصر الجاهلى وأهمية هاتين المدينتين اللتين لعبتا دورا مهماً فى هذه الحقبة الزمنية، وقد ركزت على أهم الخدمات التى قدمت فى العصر الجاهلى فى مدينة مكة المكرمة، وبالذات تنظيمات قصي بن كلاب وأهمها السقاية والرفادة والحجابة. وحيث أن مكة تقع في واد غير ذي زرع، وليس لها موارد مائية، لذا اضطررت إلى الكتابة عن التكوين الجيولوجى لمكة وأوضحت دور القرشيين وما بذلوه من جهود مكثفة في البحث عن مصادر المياه من أجل امداد أنفسهم والحجاج بالماء، ولما كانوا قد استخدموا جميع المصادر المتاحة في هذا الصدد ساقني الحديث عن الدراسات الحديثة لتوفير المياه في مكة المكرمة، وبينت أن الدراسات الحديثة لم تأت بشيء جديد عما أتوا به.

ثم تحدثت عن الناحية الاقتصادية ولما لها من أهمية ودور القرشيين في إحياء الأسواق المختلفة لتوفير الغذاء لهم وللحجاج الوافدين إلى مكة.

ولأهمية موقع المدينة فإنني تحدثت عن الناحية الجغرافية لها، ثم أوضحت الدور الزراعي والاقتصادي الذي قامت به في العصر الجاهلي، وأخيرا تحدثت عن طرق التجارة وتجارة المدينة الداخلية والخارجية.

وأما الفصل الثاني، فقد خصصته للحديث عن مرافق الحج في مكة المكرمة

والمشاعر وما قدم فيها للحجاج من خدمات وبينت أن أهم هذه الخدمات التى كانت تقدم ولازالت تقدم للحجاج في مكة وفي مشاعر الحج هي توفير المياه لهم أثناء موسم الحج من الآبار والعيون، ومن المعلوم أن هذا الأمر ليس ميسورا بالذات في مكة المكرمة التى يعتبر الزرع فيها والماء شحيحين، وقد ورد ذكر ذلك فى القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِى زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ...... الآية﴾.

وهذا ما جعل الخلفاء يهتمون بتوفير الماء فى مكة وجلبه من أماكن خارج حدود الحرم. لم يقتصر هذا الأمر على الخلفاء، بل إن بعض القبائل العربية التى سكنت مكة كان لها دورها فى حفر الآبار وزيادة عددها.

و من المعلوم أن نظام العيون لم يبدأ الاهتمام به إلا زمن معاوية بن أبى سفيان الذى اهتم بتوفير المياه عن طريق عين الأرين، ومن بعده أهتم الخليفة هارون الرشيد بإيصال ماء عين الرشا إلى مكة، وفي سنة ١٩٣هـ قامت زوجة هارون الرشيد «زبيدة» بأعظم عمل في سقاية الحجاج وأهل مكة وذلك بإيصال ماء عين حنين إلى مكة وبإيصال ماء عين وادى النعمان لمشاعر الحج عن طريق القنوات التى كانت تصب فى مجمعات محفورة لتخزين المياه وتوفيره لسقاية أهل مكة والحجاج معا. ويعتبر هذا العمل من أهم المشروعات التى ساعدت على توفير المياه في مكة وفي مشاعر الحج.

هذا ومن الملاحظ أنه حتى عصرنا الحالى لم يستجد في مكة ولا في المشاعر أية آبار أو عيون غير تلك التى عرفت منذ العصر الجاهلى وفى العصر الإسلامي.

ومن المعروف أن الحجاج يقيمون في مكة فترة طويلة لأداء نسكهم فقد كانوا يقيمون في صدر الإسلام حتى بداية القرن الخامس الهجرى في الدور الخاصة بأهل مكة، ولما كثر عددهم منذ بداية ذلك القرن وضاقت بهم دور مكة بدأ اهتمام الخلفاء والأمراء والتجار ببناء دور وأربطة خاصة لسكن الغرباء والمنقطعين في مكة على أن تخصص هذه الدور والأربطة لسكن الحجاج في مكة فترة الموسم.

ومنذ بداية إنشاء المدارس في الأمصار الإسلامية على غرار المدرسة النظامية في بغداد أنشئت المدارس في مكة وعلى الأخص حول المسجد الحرام، وكان لها دور في إسكان الحجاج فترة الموسم، إذ أن جزءا منها خصص لنزول ضيوف والى مكة وامراء الحج.

أما مشكلة توفير الأطعمة فى مكة فكانت ضمن المشكلات الرئيسية التى واجهت الخلفاء إذ أن مكة كما هو معلوم تقع في واد غير ذى زرع، فهي تعتمد على الأودية المحيطة بها مثل وادى مر، والطائف ووادى نعمان، فقد وفرت هذه المناطق الأطعمة لسكان مكة والوافدين إليها من الحجاج، كما أسهمت أمصار الدولة الإسلامية وعلى الأخص مصر فى جلب الحبوب والأطعمة إلى مكة المكرمة، فلقد قدمت مصر أعطياتها إلى مكة منذ بداية الفتح الإسلامي لها.

وخصصت الفصل الثالث للحديث عن أمكنة المشاعر ودور سكان مكة في توفير الإقامة للحجاج بها فترة أداء نسك الحج، ولذلك اعتنى الخلفاء والأمراء بتوفير الأطعمة والمياه لهم هناك، كما تحدثت عن أعطيات الخلفاء لولاة مكة والأحداث السياسية التى وقعت فى مكة وفي أمكنة المشاعر والتى كانت صدى للتنافس بين خلفاء العباسيين والفاطميين ومن بعدهم سلاطين الأيوبيين وسلاطين الرسوليين على سيادة الأماكن المقدسة وعلى إخضاع أشراف مكة لسلطانهم.

وقد خصصت الفصل الرابع للتحدث عن المرافق والخدمات التى كانت تقدم لزوار المدينة المنورة من الحجاج وتوفير المياه والمسكن والمآكل لهم أثناء الزيارة.

وبدأت هذا الفصل بالحديث عن الطريق من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة وما أقيم فيه من خدمات للحجاج والطرق الأخرى التى كان يسلكها الحجاج في ذهابهم إلى المدينة قبل توجههم إلى مكة لأداء الحج، وتحدثت بعد ذلك عن موضوع المياه في المدينة، وما يتعلق بها من المآكل. فالمدينة تختلف عن مكة من حيث وفرة آبارها وعيونها، ولذلك تعد بلدا زراعيا ينتج من أنواع التمور والحبوب والخضروات

ما يكفى أهلها، اللهم إلا في أوقات الجدب مثل عام الرمادة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - غير أنه من المعروف أن كثيرا من المسلمين في مختلف الأمصار الإسلامية كانوا يفدون إليها للإقامة بها في جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم، منصرفين إلى العبادة، وهؤلاء كان معظمهم من الفقراء. وبالنسبة لسقاية الحجاج الوافدين إليها للزيارة، فلم يعانوا من ذلك كما هو الحال في مكة نظرا لكثرة الآبار والعيون بها، وقد قمت في هذا الفصل بتعدادها والتحدث عنها، وبيان عناية الخلفاء بهذه الآبار والعيون.

ومن المعلوم أن الحجاج لم يعانوا من مشكلة السكن في المدينة المنورة في فترة زيارتهم حيث أن أهلها كانوا يرحبون بهم في دورهم الخاصة، وقد ظل الأمر على ذلك حتى القرن الخامس الهجرى، إذ لم تعد دور المدينة تكفي لاستقبال الحجاج الوافدين إليها، ومن ثم بدأ إنشاء الأربطة بها، على غرار ما حدث في مكة لينزل بها أثناء فترة الزيارة كل جماعة تنتمى إلى بلد من البلدان الإسلامية.

ولم يفتنى أن أتحدث عن أمكنة الزيارة في المدينة وهي المساجد التى بنيت بها في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، في العناية بهذه الأماكن وتوفير المياه فيها.

ثم تعرضت لدور الأعطيات التى كان يقوم الخلفاء بارسالها إلى ولاة المدينة وسكانها لكسب عطفهم حيث أنها كانت العاصمة الأولى للدولة الإسلامية ومنه إلى الكوفة ثم إلى دمشق ثم إلى بغداد، وعلى الرغم من أنها لم تعد عاصمة الدولة ظلت محتفظة بمكانتها الدينية لذلك حرص خلفاء الدولة الأموية وخلفاء الدولة العباسية وخلفاء الدولة الفاطمية وغيرهم من سلاطين الأيوبيين ثم الرسوليين على رعاية أهلها وكسب أمرائها وتقديم الأعطيات لهم لتثبيت نفوذهم السياسي في العالم الإسلامي.

وأسأل الله التوفيق ،،، ،،،

أهم المصادر والمراجع في هذا البحث

أما بالنسبة لمصادر هذا البحث، فقد استعنت ببعض المخطوطات وكان من أهمها:

١ ـ الأسدى: أحمد بن محمد (١٠٦٦هـ)
أخبار المرام بأخبار المسجد الحرام (مكتبة الحرم المكى، رقم ٢٣ تاريخ). وقد أمدنى بمعلومات عن بعض المرافق التى أقيمت في مشاعر الحج وبعض أمراء الحج ودورهم في ذلك، وحرص مؤلفه على ذكر أهم الخدمات التى قدمها أمراء الحج للحجاج في مكة المكرمة.

٢ ـ الرشيدى: أحمد
حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولى إمارة الحاج (مكتبة الحرم المكى رقم ١١ تاريخ). وقد حوى معلومات كثيرة عن إمارة الحج وأمراء الحج ودورهم في توفير الأمن للحجاج على طوال طرق الحج المختلفة، مع ذكر بعض الحوادث التى وقعت في هذه الطرق.

٣ ـ الصباغ: محمد بن أحمد (ت: ١٣٢١هـ)
تحصيل المرام في أخبار البلد الحرام (مكتبة الحرم المكى، رقم ٤٨ تاريخ). الذي أفادنى في معرفة الأربطة التى سكنها الحجاج كما أمدني بتراجم لبعض الرجال الذين عاشوا في هذه الأربطة ودور حلقات العلم فيها.

٤ ـ ابن الضياء (ت ٨٥٤هـ)
تاريخ مكة المكرمة والمسجد الحرام والمدينة المنورة (دار الكتب المصرية، رقم

١٥٧٠ تاريخ). الذى تحدث عن أهم الأحداث التى وقعت في مكة فترة حكم الأشراف، وما حدث بين بعض أشراف مكة وأشراف المدينة من اختلافات كما تعرض لبعض الأحوال السياسية في أواخر العصر العباسي.

٥ - ابن فهد (ت ٨٨٥هـ)
إتحاف الورى بأخبار أم القرى، أربعة أجزاء (مكتبة الحرم المكى رقم ٩٢ تاريخ). وقد اهتم بذكر الحوادث التى وقعت في مكة حين سيطر الرسوليون عليها. وقد رتب كتابه بالسنوات، واهتم بذكر المدارس التى كان لها دور فى التعليم بالحجاز.

٦ - المالكى: على بن عامر المالكى (ت ١٠٤٧هـ)
الشافي الصغير: مكتبة آل المالكى وهى لورثة أبناء محمد جمال مالكى بمكة المكرمة، وقد وصف الطريق التى كان يسلكها الحجاج في مكة المكرمة الى مشاعر الحج واهتم بذكر مناسك الحج.

أما المصادر القديمة المطبوعة فيأتى في مقدمتها:

٧ - ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر.
قدم لى هذا الكتاب مادة وفيرة فيما يختص بعلاقة الخلافة الفاطمية بأمراء مكة والمدينة وما دور هذه العلاقة بالنسبة للخلافة العباسية.

٨ - ابن الأثير: الكامل في التاريخ
وقد رتب المؤرخ كتابه حسب السنين، وقد وضح في بعض هذه السنين الأحداث التي تعرض لها الحجاج في طريقهم إلى مكة، وقد أمدنا بمعلومات عن اصلاحات الخلفاء في طرق الحج.

٩ - ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة
وقد رتب كتابه حسب السنين، ويعتبر هذا الكتاب مصدراً من أهم المصادر

بالنسبة للعلاقات بين مصر والحجاز فترة حكم الخلافة الفاطمية. وفي فترة خلافة أمراء الحجاز بالدولة الأيوبية.

١٠ - الجزيرى: درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة.
يعتبر من أهم المصادر التى اهتمت بذكر طرق الحج مع ذكر الحوادث التى حدثت فى هذه الطرق، كما وأنه ذكر بعض أمراء الحج وأوضح شروط امارة الحج وواجباتها.

١١ - السمهودى: وفاء الوفاء بأخبار مدينة المصطفى (صلى الله عليه وسلم).
وقد أورد السمهودى أهم الخدمات التى قدمت للحجاج في المدينة المنورة في فترة خلافة الدولة الأموية والعباسية. كما تحدث عن هذه المرافق في المدينة وعن أماكنها.

١٢ - ياقوت : معجم البلدان
وصف لنا ياقوت المدن والأماكن التى تقع على طول طريق الحج، كما أمدنا بمعلومات عن القبائل التى تسكن فى هذه الطرق.

١٣ - الاصطخرى: مسالك الممالك
ولقد أفادنا كتابه فائدة كبيرة في معرفة موقع مكة المكرمة والمدينة المنورة، كما أهتم بالوصف بالنسبة لسطحها وأوديتها وطبيعة هاتين المدينتين.

١٤ - ابن جبير: الرحلة
وهو ذو فائدة كبيرة في وصف طريق الحج عن طريق ميناء عيذاب والصعوبات التى كانت تواجه الحجاج في طريقهم، هذا فضلا عن أنه تطرق للناحية السياسية في ولاية مكة المكرمة.

١٥ - ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار
لقد أهتم ابن بطوطة بذكر المدارس التى كانت حول الحرم المكي، وكانت موجودة في عهده، وقد عرفنا منه الشيء الكثير عن هذه المدارس، ودور العلماء الذين كانوا يقومون بالتدريس فيها.

١٦ ـ المقدسى : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم
وصف لنا وضع الحجاز الاجتماعي في أواخر العصر العباسى والنواحى السياسية التى لعبت هذا الدور في حكم اسرات الأشراف.

أما بالنسبة للمراجع الحديثة فيأتى في مقدمتها

١٧ ـ ابراهيم رفعت: مرآة الحرمين
وقد أفادنا في معرفة بعض النواحى الاجتماعية التى شاهدها أثناء قيامه بإمارة الحج، كما أمدنا بالكثير من المعلومات التاريخية عن الحج وما يتصل به من أحداث سياسية في العصر الإسلامي.

١٨ ـ احمد السباعى : تاريخ مكة المكرمة
تناول في كتابه النواحى الاجتماعية في مكة، وأوضح الدور السياسى لولاة مكة منذ أن بدأ حكم أسرة الأشراف الحسنية على مدى علاقتهم بالخلافة العباسية والفاطمية.

١٩ ـ يوسف أحمد: المحمل والحج
لقد تناول هذا الكتاب معرفة أهم مرافق الحج والخدمات التى قدمت للحجاج في مكة المكرمة.

٢٠ ـ عبدالقدوس الأنصارى: آثار المدينة المنورة
تحدث الأنصارى عن أهم الدور والأربطة التى أقيمت في المدينة لتكون سكنا للحجاج، كما أهتم بذكر العيون، وأهمها عين الزرقاء وأوضح أهميتها بالنسبة لتوفير المياه في المدينة والاصلاحات التى طرأت عليها.

٢١ ـ أحمد ابراهيم الشريف: دور الحجاز في الحياة السياسية في القرن الأول الهجرى.
أهتم المؤلف في هذا الكتاب بذكر الدور السياسي الذى لعبته المدينة المنورة في

حياة الدولة الإسلامية منذ نشأة حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم، ودور الحياة السياسية في حكم البيت الأموي.

هذا وقد حفلت الدوريات العربية بأبحاث ومقالات علمية أثارت كثيرا من غوامض الموضوع، ومن أهم هذه الدوريات.

مجلة الفيصل، مجلة رابطة العالم الإسلامي، ومجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية.

وبفضل هذه المصادر والمراجع التاريخية، وبقدر ما توفرت فيها من مادة، أمكننا دراسة هذا الموضوع وجمع شتاته في الفصول المشار اليها سابقا.

ولا يسعنى في هذا المقام إلا أن أتقدم بخالص الشكر وعظيم الامتنان لأستاذى الدكتور أحمد السيد دراج الذى تولى الاشراف على هذا البحث وتعهده برعايته وتوجيهه، منذ أن كان فكرة حتى صار حقيقة، كما أشكر أساتذتى الذين شاركوا في قراءة هذا البحث وتحملوا مشقة مناقشته.

وأسأل الله التوفيق ،،،،،

الفصل الأول

مكة والمدينة قبيل ظهور الإسلام

١ ـ مكة المكرمة

نبذة جغرافية عن مكة المكرمة

نبذة تاريخية عن مكة المكرمة

سلطة قريش وتنظيمات قصى بن كلاب

٢ ـ المدينة المنورة

نبذة عن موقع المدينة وجغرافيتها

النشاط الاقتصادى لسكان المدينة المنورة

التجارة الداخلية والخارجية وطرق القوافل

الفصل الأول

مكة والمدينة قبيل ظهور الإسلام

أولا : مكة المكرمة :

أ ـ نبذة جغرافية عن مكة المكرمة :

تقع مكة في الجزء الشرقي من تهامة حيث توجد أودية عديدة تنساب من المرتفعات الحجازية التى تتفرع منها سلاسل جبلية (أقل ارتفاعا) كالأصابع ، وتحتل هذه الأودية المساحات المحصورة بين الأصابع الجبلية . ويمكن القول بأن مكة وواديها الذى تقع فيه يحتل وسط الجزء الشرقي من تهامة. فمكة مدينة وديانية قامت أحياؤها في وسط وعلى جوانب واديها ويعرف هذا الوادى بوادى ابراهيم عليه السلام . وبعبارة أخرى يخترق وادى ابراهيم مدينة مكة المكرمة من أعلاها إلى أسلفها ، وفي وسط هذا الوادى يوجد المسجد الحرام .

لعل أحسن وصف لمكة المكرمة يلائم الفترة الزمنية التى يتحدث عنها هذا البحث هو الوصف الذى ذكره الجزيرى عام ٩٦٠هـ حين يقول: (مكة في واد قد حف به الجبال منها الاخشبان وهما قيقعان وابو قبيس. . والفلق والحجون، وطولها من العلو الى السفل وهى من المشرق الى الشمال نحو ميل، وعرضها من أسفل أجياد الى قيقعان من نحو ثلثي ميل)(١).

وتتمتع حدود مكة المكرمة التى حرمها الله سبحانه وتعالى الى مسافات محددة من جهة المدينة، وجدة، واليمن. وفى هذا الصدد يقول الجزيرى أيضا: (وحد البقعة التى حرمها الله سبحانه وتعالى من طريق المدينة على ثلاثة أميال، ومن طريق جدة

(١) الجزيرى: درر الفوائد، ص ٥٧٦٧.

عشرة أميال، ومن طريق اليمن ستة أميال، وفي جهة كل طريق علم مبنى يتميز به الحرم عن غيره). وقد توارد القول بأن هذه الاعلام من بناء عدنان لما خاف أن تجهل حدود الحرم وهو محيط بمكة المشرفة[1].

وتمر بوسط مكة المكرمة دائرة العرض الشمالي ٢٨/ ٢١°، وخط الطول الشرقي ٥٠/ ٣٩°[2].

ويعتقد أن مكة تتوسط العالم حيث أنها تعتبر مركز اليابسة في الكرة الأرضية[3]. ويؤكد هذا الاعتقاد حسين كمال الدين وزميله في بحثهما عن اتجاه القبلة، فلقد صمم الباحثان جهازا يساعد على تحديد اتجاه القبلة، وتوصلا إلى معرفة موقع مكة المكرمة في وسط العالم، وبالتالي رسما خريطة حسبا فيها أبعاد كل الأماكن عن طريق خطوط الطول ودوائر العرض، وأكدا بأن مكة تحتل مركز اليابسة في الكرة الأرضية[4]..

وصف سطح مكة وقلة المياه فيها:

نظرا لموقع مكة فان طبيعة سطح مكة منحدر بشكل عام من الشرق الى الغرب، ويضم واديها (وادى ابراهيم) شعاب كثيرة تتجه فى انحدارها نحو قلب ووسط الوادى، ولعل هذا النمط من الانحدار يوجد في المناطق المجاورة لمكة المكرمة، حيث أن الجزء الشرقي من تهامة كونته أصابع جبلية متفرعة من جبال الحجاز، والمساحات بين هذه الأصابع الجبلية وديان تصرف المياه المنحدرة عليها.

إن المنطقة الوديانية التى تقع فيها مكة كغيرها من الوديان المجاورة تمثل نطاق

(١) الجزيرى: درر الفوائد، ص ٥٦٧.

(٢) الخريطة الجيولوجية الجغرافية لشبه الجزيرة ١٩٦٣م. الثروة المعدنية طبعة مصلحة المساحة الجيولوجية الأمريكية.

(٣) مجلة أخبار العالم الإسلامى، العدد ٥١٠ بتاريخ ١/١/١٣٩٠هـ/ ١٠/١/١٩٧٠م..

(٤) حسين كمال الدين ومحمد الشافعى عبدالمطلب: بحث تحديد مكان القبلة، مجلة الفيصل، العدد الأول، رجب ١٣٩٧هـ، ص ٣٧.

الرواسب الفيضية، وهذه التى تكونت عبر الصخور الجيولوجية المختلفة خاصة في عصور القرن الرابع الجيولوجي والذى يدخل فيه العصر الجيولوجي الحديث[١].

ولاشك أن مجارى الوديان هي مناطق الرواسب الفيضية التى تصل الى اتساعات وأعماق مختلفة حسب طبيعة واتساع الوديات وهذه الرواسب الفيضية تمتاز بصفتها المسامية التى تعطيها القدرة على تخزين مياه الأمطار. لذا يمكن القول أن الرواسب الفيضية في وديان مكة وما حولها ذات أهمية كبيرة بالنسبة لمصادر المياه والحياة الاقتصادية. وأن البحث عن الماء الجوفي وحفر الآبار قد ارتبط بهذه الرواسب الفيضية غالبا، بينما تتيح بعض الشقوق الجبلية القريبة من الرواسب الفيضية مخرجا طبيعيا للمياه المتجمعة والمنبثقة من بعض الشقوق الجبلية، وتعرف بالعيون.

إن ارتباط المياه الجوفية في مكة بالسهول الفيضية ارتباط طبيعى لا يتوافر في سواها من المدن مثل المدينة المنورة أو أى منطقة تكونها الأودية ذات السهول الفيضية. ويشمل قولنا هذا جميع مناطق الدرع العربي في غرب شبه الجزيرة العربية. فارتباط مصادر المياه الجوفية بالسهول الفيضية هي سمة من سمات الدرع العربى المكون من الصخور النارية المتحولة، بالاضافة الى الحرات البركانية التى تتصف جميعها بصلابتها وعدم وجود مسام فيها[٢]. بينما تتسم السطوح المكونة لكل المناطق الواقعة الى الشرق من الدرع العربى بكونها مناطق رسوبية مسامية تكثر في بعض أجزائها المياه الجوفية التى تجمعت نتيجة لهطول الأمطار في العصور الجيولوجية المختلفة خاصة في الأزمنة المطيرة من العصر الرابع الجيولوجى[٣]. إن وفرة المياه في بعض أجزاء المناطق

---

(١) Geological Times, British Msueum, 1972, Panel 1 4.

(٢) شروحات الخريطة الجيولوجية لشبه الجزيرة العربية: طبعة ١٩٦٣م وزارة البترول والثروة المعدنية (مصلحة السماحة الجيولوجية الأمريكية)، مقياس (١ : ٢٠٠٠،٠٠٠).

Geukens, F. : Contribuition a la Geologie de Yemen.

Mèmpires de l'institute Geologique, De L'Universite

de Louvain , T. XXI, 1960. pp. 2-8.

(٣) Powers, R.W. and others: Geology of the Arabian Peninsula. (Sedimentary Geology of Saudi Arabia, 560-D 1966, pp. 1-8.

الرسوبية يتمثل في الأحواض الطبيعية في الصخور القاعدية لشبه الجزيرة العربية. وتميل الصخور القاعدية في انحدارها العام من الدرع العربى الى الشرق وهذا هو السبب المباشر في وجود العيون الكثيرة في شرق المملكة العربية السعودية.

وقد ساعد وجود الأحواض الطبيعية ـ وهي عظيمة المساحة والعمق ـ في الصخور القاعدية على وجود الصخور الرملية والجيرية فيها وهى الخازنة للمياه الجوفية(١). لذا يمكننا القول بأن طبيعة المناطق الرسوبية جعلها أكثر حظا في تخزين كميات كبيرة من المياه الجوفية، وأن هذه المناطق الرسوبية الفيضية تنحصر في أودية الدرع العربي كما هو الحال في مكة والوديان المجاورة لها.

وقد بحث عن الماء في السهول الفيضية في منطقة مكة المكرمة وتم حفر آبار عديدة فيها في العصر الجاهلى وكذلك في العصر الإسلامي حتى الوقت الحاضر. ففي الوقت الحاضر قامت مصلحة المياه بالمنطقة الغربية بدراسات لمعرفة امكانية تطور مصادر المياه الجوفية في منطقة مكة. ففي هذا الصدد قامت إحدى الشركات الأجنبية بمسح جيولوجى رائع للمنطقة لدراسة معرفة مصادر المياه الجوفية في منطقة جدة ـ مكة ـ الطائف ـ غير أن الدراسة أسفرت عن عدم وجود أى مصادر جديدة يمكن الاستفادة منها(٢).

ومعنى ذلك أن أهالى مكة في العصرين الجاهلي والإسلامي قد استنفذوا تماما جميع امكانيات البحث عن الماء، وهو ما يتمثل فى الآبار والعيون التى سنتحدث عنها فيما بعد.

ولعل عملية تكرير مياه البحر الأحمر هي المصدر الجديد للمياه في الوقت الحاضر وهو ما اتجهت اليه الحكومة السعودية فعلا. فقد تم بناء أول محطة الى الشمال من جدة وجرى توسعتها لرفع طاقتها الانتاجية من المياه المحلاه وتنوى الحكومة السعودية زيادة توسعتها بشكل عظيم في المستقبل وبناء محطة أخرى ضخمة بالقرب من المحطة

---

(١) محمود طه أبوالعلا: جغرافية شبه الجزيرة العربية، جـ ٢، ص ١٣٠: ص ١٣٦.

(٢) وزارة الزراعة والمياه: تقارير شركة.

السابقة لكى تتوفر المياه وتلبى حاجة مدينة جدة والمدن الأخرى القريبة منها وتغطية حاجة النمو العمراني والصناعي في المنطقة. وليس من المستبعد أن تصل المياه من محطات التحلية بجدة الى مكة في المستقبل القريب. وهذا سوف يساعد على وفرة المياه في مكة والمشاعر خاصة فى موسم الحج، مما يؤدى الى راحة حجاج بيت الله. وتنوى الدولة السعودية التوسع في هذا المصدر الجديد للمياه باقامة مزيد من محطات التحلية عاما بعد عام.

ب ـ نبذة تاريخية عن مكة المكرمة :

مكة بلد في واد غير ذى زرع، وأول من أتاها ابراهيم عليه السلام وابنه اسماعيل وأمه هاجر. أتوا اليها من بلاد الشام بأمر من الله سبحانه وتعالى، وكان جبريل عليه السلام يرشد ابراهيم عليه السلام فى طريقه حتى وصل به وبأهله مكان البيت الحرام[1].

ولقد ورد ذكر هجرة ابراهيم عليه السلام في القرآن الكريم على لسانه:

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾[2].

وبعد استقرار ابراهيم عليه السلام بمكة ترك زوجته هاجر وطفلها اسماعيل عليه السلام بها وعاد الى الشام بأمر من الله سبحانه وتعالى[3]. ولقد حاول بعض المؤرخين معرفة الفترة الزمينة لابراهيم عليه السلام بالنسبة لنبى الله عيسى بن مريم عليه السلام. ومن هؤلاء ليونارد وللى Leonard Woolley الذى توصل في بحثه لهذه النقطة في كتابه (ابراهيم Abrahame) الى أن فترة ابراهيم عليه السلام ربما كانت قبل المسيح عليه السلام بألفى عام تقريبا[4].

(١) ابن كثير : البداية والنهاية، جـ ١، ص ١٠٥.
(٢) سورة ابراهيم، آية ٣٧.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١، ص ١٠٥.
(٤) Wooley, L. : Abraham- Recent Discoveries and Hebrew Origins, Faber, 1936, 1, pp. 20.

وسكنت هاجر وطفلها بجوار البيت الحرام، وبعد أن نفذ ماء هاجر أخذت تسعى بين تلى الصفا والمروة ذهابا وجيئة، وحين عادت في المرة السابعة وجدت تحت رجلى ابنها اسماعيل عليه السلام الماء فاحاطته بيدها وصارت تقول: زمي . . . زمي. وسميت زمزم بذلك، وشربت وسقت ابنها[1].

ولوجود الماء بدأت القبائل العربية تفد إلى مكة أثناء تنقلاتها ورحلاتها، وكانت هذه القبائل تعطى لأم اسماعيل ما يكفل لها العيش مقابل سقاية الماء لهم[2]. ومن أوائل الوافدين إلى مكة ركب من جرهم كان قادما من الشام وطلبوا من هاجر النزول معها فرحبت بهم، ثم أرسلوا الى أهلهم يخبرونهم بمكانهم[3]. ويذكر الأزرقى أن بعضا من جرهم سكنوا مع أم اسماعيل عليه السلام، وكبر اسماعيل بينهم فأعجبوا به وبعد وفاة أمه مكث بينهم، ولما كبر زوجوه جارية منهم[4].

وكان ابراهيم عليه السلام يحضر الى ابنه اسماعيل عليه السلام في مكة ويسأل عنه. وبعد أن بلغ عمره عشرين عاما، ويقال ثلاثين عاما حضر والده إليه وطلب منه أن يقوم بمساعدته في بناء الكعبة، وبعد فراغه من بنائها، قام بأداء فريضة الحج وفيها حدثت قصة الذبيح[5].

ويمكننا أن نشير الى ما أجمع عليه كثير من المؤرخين بأن قبيلة جرهم هى أول قبيلة سكنت مكة مع هاجر وابنها اسماعيل عليه السلام[6] ويعتقد بأن قبيلة جرهم يمنية[7].

---

(١) الأزرقى: أخبار مكة، جـ ٢، ص ٤٠.

(٢) الفاسى: شفاء الغرام، جـ ١، ص ١٧٠.

(٣) الأزرقى: أخبار مكة، جـ ١، ص ٥٨.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١، ص ١١٢.

(٥) محمد بن احمد الصباغ: تحصيل المرام في أخبار البلد الحرام، مكتبة الحرم المكى، ورقة ٣٨.
- الفاكهى: المنتقى، ص ٤٧.
- ابن ظهيره: الجامع اللطيف، ص ٣٥.

(٦) ابن هشام: السيرة، جـ ١، ص ١٢٥
- المسعودى: مروج الذهب، جـ ١، ص ٥٤.
- الأزرقي: أخبار مكة، جـ ١، ص ٦٣.

(٧) جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ ٤، ص ١٠٥.

وبعد مصاهرتهم اسماعيل عليه السلام كثر أبناؤه فيها بعد وسموا بالعرب المستعربة[1]. والجدير بالذكر أن خدمة الحرم والمحافظة عليه بقيت في أبناء اسماعيل عليه السلام، ثم آلت من بعدهم الى قبيلة جرهم التى استمرت في تقديم الخدمات للحرم حتى بدأ بعضهم في أعمال غير ملائمة لمكانتهم في الحرم فسلط الله عليهم الجدب وانتشرت الأوبئة بينهم وأخرجهم الله من الحرم[2]. وهكذا لم يبق أى أثر من قبيلة جرهم في مكة سوى بعض الأشخاص الذين بقوا على دين ابراهيم الخليل عليه السلام[3].

ويذكر الفاسى أن قبيلة خزاعة طلب النزول مع قبيلة جرهم في الحرم، ويعتقد أن كبير قبيلة جرهم وافقهم على النزول الا أن الباقية رفضوا ذلك مما أدى الى إصرار قبيلة خزاعة على النزول في الحرم، وبذلك بدأ القتال بين القبيلتين الذى استمر ثلاثة أيام[4] أو أكثر من ثلاثين يوما حسبما يذكر الأزرقي[5].

وقد أسفر هذا القتال عن هزيمة جرهم وخروجها من مكة وانتصار خزاعة التى لم يفلت من يدها الا عدد قليل من الجراهمة الذين لم يدخلوا في القتال[6]. وهكذا حكمت قبيلة خزاعة وهي يمنية أيضا، مكة وولوا عليهم فيما بعد ربيعة بن حارثة بن عمر بن عامر[7].

ويذكر لنا جيرالد دى جورى Geralde de Gaury ان عام ٢٠٧م يمثل نهاية حكم قبيلة جرهم على يد قبيلة خزاعة[8] كما يعطينا برسيفال Perceval, A.B. أسماء خمسة من أمراء جرهم من عام ٧٤ق.م الى عام ٧٦م بشكل مسلسل وأسماء سبعة آخرين

(١) جواد على: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ ٤، ص ٢٥.
(٢) الأزرقى: أخبار مكة، جـ ١، ص ٧٠.
(٣) المصدر السابق، جـ ١، ص ٧٢.
(٤) الفاسي: شفاء الغرام، جـ ١، ص ١٧٥.
(٥) الأزرقي: أخبار مكة، جـ ١، ص ٩٦.
(٦) جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ ٤، ص ١٧.
(٧) الأزرقي: أخبار مكة، جـ ١، ص ١٠٥.
(٨) De Gaury, F., Rulers of Mecca, P.

منهم من ٧٦م الى ٢٠٦م[١] واعتمادا على هذه القائمة يتضح أن عمرو بن حارث الذى حكم حوالي ١٧٠م هو أمير جرهمى ، ألا أن : ابن خلدون يشير الى أن عمرو بن حارث هو أحد رؤساء قبيلة خزاعة . كما يؤكد أن عمرو بن لحى هو أول رئيس لقبيلة خزاعة وأنه هو الذى أحضر صنم هبل من الشام أو العراق الى مكة[٢] .

وبعد أن استتب الأمر لخزاعة جاءهم بنو اسماعيل عليه السلام ، وكانوا على الحياد وقت القتال بين جرهم وخزاعة وطلبوا من خزاعة السكنى معهم فرحبوا بهم[٣] . ويذكر لنا الازرقي والفاسى بعض أقوال زعيم خزاعة لقومه فيذكران أنه قال لهم من وجد منكم جرهميا قارب الحرم فليهدر دمه . ويروى هذين المؤرخين بأن بعضا من خزاعة وجدوا إبل مضاض بن عمرو هو جرهمي تقترب من الحرم وحين وصلت وسط الوادى لم يستطع مضاض من دخول الوادى ، لذا صعد الى جبل أبى قبيس ورأى إبله في وسط مكة وقد اعتدى عليها من قبل خزاعة حيث أنهم نحروا إبله[٤] . وعاد مضاض بن عمرو الى قومه وأخبرهم بحادثته فغدا قومه يتذكرون ما حال بينهم وبين دخول مكة ويدأ الحزن عليهم . ومنهم من أنشد بعض الأشعار التى آلمتهم لفراقهم مكة وبعدهم عنها وفى هذا الصدد يقول أحدهم :

كنا زمانا ملوك الناس قبلهم : بمكة فى حرم الله مسكونا[٥]

وبعد وفاة ربيعة بن حارثة تولى عمرو زعامة خزاعة ، وقد اشتهر بالكرم والجاه . وعمرو هذا هو أول من أطعم الحجاج فى مكة وقدم لهم لحوم الإبل وعمل لهم الثريد[٦] . ويعتقد أن عمرو حمى الحجاج من اعتداء القبائل خارج مكة ، ووفر لهم الماء بحفر بعض الآبار[٧] . كما يذكر لنا الفاسى أن عمرو قام بنصب الأصنام حول

(١) De Perceval, A.P. : Essia sar L'historie des Arabes, T. III, Parris 1847, 48, P. 95.

(٢) ابن خلدون : العبر، جـ ٤ ، ص ٨٠.

(٣) الأزرقي : أخبار مكة ، جـ ١ ، ص ١٠٦ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

(٥) الأزرقي : أخبار مكة ، جـ ١ ، ص ١٠٩ .

(٦) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام ، جـ ١ ، ص ٣٧.

(٧) المسعودى : مروج الذهب ، جـ ١ . ص ٧٦٥.

الكعبة، وأن قومه أطاعوه لما قدمه لهم من خدمات[1]. ويجدر بنا هنا أن نذكر شعر رجل من جرهم كان بمكة آنئذ وعلم بما فعله عمرو من تغيير دين الحنيفية بنصب الأصنام حول الكعبة، وقال:

يا عمرو لا تظلم بمكة : انها بلد حرام
سائل بعاد أين هم : وكذاك تخترم الأنام
وبنى العماليق الذين : لهم بها كان السوام

وبعد معرفة عمرو بذلك أخرج هذا الجرهمي من مكة وبعد خروجه منها أنشد يقول:

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة : وأهلى معا بالمازمين حلول
وهل أرين العيش تنضح فى الورى : لها بمنى والمازمين زميل

ويذكر المؤرخون أن ولاية خزاعة استمرت بعد عمرو أكثر من قرنين من الزمان[2]، وفى رواية أخرى أن أبناء عمرو استمروا أكثر من خمسمائة عام[3]. ويمكن القول أن آخر من تولى من خزاعة هو حليل بن حبشية الخزامى[4].

جـ ـ سلطة قريش وتنظيمات قصى بن كلاب فى مكة المكرمة :

يجمع المؤرخون على أن تاريخ قبيلة قريش أكثر وضوحا وتفصيلا من تاريخ قبيلة جرهم وخزاعة اللتين سبقتها فى سكن مكة[5]. ويمكن القول أن تاريخ قبيلة قريش

(١) الفاسى: شفاء الغرام، جـ ١، ص ٧٠.
(٢) الأزرقي: أخبار مكة، جـ ١، ص ١١٢.
ـ الفاسى: شفاء الغرام، جـ ١، ص ٨٤.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١، ص ١٠٤.
ـ الفاسى: شفاء الغرام، جـ ١، ص ١٠٠.
ـ ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص ٤٥.
(٤) المسعودى: مروج الذهب، جـ ١، ص ٢٨٣.
(٥) جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ ٤، ص ١٨ : ٢٢.

يبدأ بقصى بن كلاب الذى تولى ولاية مكة بعد وفاة حليل بن حبشية الخزاعى وهو آخر من تولى ولاية مكة من قبيلة خزاعة.

فلقد تولى قصى بن كلاب ولاية مكة نتيجة لتزوجه ابنة حليل التى أعطاها أبوها مفتاح الكعبة قبيل وفاته، وبذلك تمكن قصى بن كلاب من أخذ مفتاح الكعبة مما أدى الى ثورة نفر من خزاعة، إلا أن قصى والقرشيين انتصروا عليهم، وبهذا انتقلت ولاية مكة الى قصى بن كلاب وأبنائه من بعده[(1)].

وتعود قبيلة قريش الى كنانة، وكنانة بن عدنان، وتتباين آراء المؤرخين فى تسمية قريش، فمنهم من يقول أن هذه القبيلة سميت قريشا من التقريش وهو الاكتساب، ومنهم من يقول انها سميت قريشا لتجمعها من تفرقها. ويتفق الأزرقى مع الزبيدى فى هذه التسمية[(2)]، الا أن الفاكهى يقول بأنهم سموا قريشا لأنهم يتقرشون البضاعات ويشترونها[(3)]. ويقول صاحب كتاب اللسان أن لها تسميات عديدة[(4)]. وأن الأرجح هو أن قريشا مأخوذة من القرش نسبة الى حيوان البحر، وفى هذا الصدد يستشهد بالأبيات التى قالها ابن عباس - رضى الله عنه:

قريش هى التى تسكن البحر : بها · سميت قريش قريشا
تأكل الغث والسمين ولا تتر : ك منه لذى جناحين ريشا[(5)]

ويؤكد هذا الرأى ابن ظهيرة ويقول أن القرش هو ملك الحيوانات فى البحر وأن قريشاً سادة العرب[(6)].

عندما تولى قصى بن كلاب ولاية مكة نازعته قبيلة خزاعة فاستنجد بالقرشيين

(١) النهروالى: الاعلام بأعلام بيت الله الحرام، ص ٤٩.
(٢) الزبيدى: تاج العروس، مادة قريش.
- الأزرقى: أخبار مكة، جـ ١، ص ١٢٣.
(٣) الفاكهى: المنتقى، ص ٦٥.
(٤) ابن منظور: لسان العرب، مادة قريش.
(٥) الأزرقى: أخبار مكة، جـ ١، ص ١٢٥.
(٦) ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص ٨٢.

المقيمين فى مكة، وأبناء كنانة وطلب منهم مناصرته، كما استنجد باخوته من أمه من قبيلة قضاعة من أجل نصرته على خزاعة[1].

واستجابت قبيلة قضاعة مع اخوته وحضروا الى مكة فى موسم الحج، وبعد الفراغ من الحج طلبت قبيلة قضاعة من قبيلة خزاعة أن يتركوا ما وصل اليه قصى بعد وفاة حليل فى ولاية مكة، وحذروهم الظلم والقتال فى مكة فرفضت خزاعة أن تسلم له ذلك، واقتتلوا فى مكان سمى بمازمى منى واستمر القتال مدة طويلة حتى بدأت القبائل العربية فى التدخل، وأسفر هذا التدخل عن الاحتكام الى عمرو بن عوف بن كعب بن عامر بن الليث ابن بكر بن عبدمناف بن كنانة، لاشتهاره بين العرب بالمشورة، فجمعهم بفناء الكعبة وسمع منهم الأقوال وحكم لهم بأن تكون ولاية مكة وحجابة الكعبة لقصى بن كلاب وأن تبقى خزاعة محتفظة برباعها فوافقت خزاعة على ذلك[2]. ويجدر بنا أن نذكر أن قبيلة خزاعة قد طمرت بئر زمزم فى فترة حربها مع قصى[3].

وبعد استقرار الأمر لقصى أحل للقرشيين بناء بيوتهم فى المنطقة المحيطة بفناء الكعبة[4]. ويعتبر هذا الاجراء من قصى أول انتهاك لما كان متعارفا عليه من قبل، فلقد كانت المنطقة المحيطة بفناء الكعبة يحظر فيها البقاء ليلا والبناء. ولعل جوهرية عمل قصى تتمثل فى بعد نظره بأنه وقبيلته حينما يسكنون فى بيوت داخل المنطقة المحيطة بفناء الكعبة فانهم يكونون داخل الحرم فيأمنون شر القبائل المعتدية آنذاك. وبذلك انتشرت بيوت قريش فى هذه المنطقة، كما قامت بينها ممرات عديدة يتمكن الحجاج عن طريقها من الوصول الى الكعبة وفنائها[5].

ويعتبر قصى بن كلاب أول من وضع أسس حكومة مكة وخدمة الحرم والحجاج،

---

(١) جواد على: المفصل، جـ ٤، ص ١٠٢.
(٢) ابن هشام: المسيرة، جـ ١، ص ١٢٥.
(٣) الأزرقى: أخبار مكة، جـ ٢، ص ٤٣.
(٤) De Gaury, op. cit., P 38
(٥) Ibid., P. 38

وهذه الأسس والخدمات هى : الندوة، واللواء، والحجابة، والرفادة، والسقاية[1].

وباستمرار ولاية مكة فى أبناء قصى بن كلاب استمرت هذه الأسس والخدمات. ويمكننا اعتبار الندوة واللواء والحجابة وظائف، بينما تعد السقاية والرفادة من الخدمات[2].

ومن الواضح أن أهم هذه الوظائف هى الحجابة، والمقصود بها حجابة الكعبة أى سدانتها فلا يفتح بابها الا سادنها، وهو الذى يتولى أمر خدمتها. وقد وزع قصى بن كلاب قبل وفاته الأعمال بين أبنائه، فكان نصيب بنى عبدالدار سدانة الكعبة واللواء والندوة، وقد استمرت هذه الوظائف فى أبنائه من بعده، حتى عثمان بن طلحة الذى كان سادن الكعبة حينما فتح الرسول صلى الله عليه وسلم مكة[3].

هذا ومن المفيد أن نشرح فى إيجاز نشأة خدمات الرفادة والسقاية لتعلقها بالحج. فقد بدأت الرفادة على يد قصى بن كلاب حينما خطب فى القرشيين قائلا : «يامعشر قريش إنكم جيران الله وأهل الحرم وان الحاج ضيف الله وزائر بيته فهو أحق بالكرم، فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام الموسم ففعلوا ذلك[4]. فكانوا يخرجون من أموالهم كل عام خراجا يدفعونه الى قصى بن كلاب فيصنعه طعاما للحجاج أيام الموسم فى مكة ومنى، وأصبحت ضيافة الحاج فى مكة من أهم الأعمال التى تنسب الى قصى بن كلاب. وتولى هاشم من أبنائه السقاية والرفادة وهى اطعام الحجاج فى فترة مكوثهم فى مكة ومنى فقط[5].

ولم يصنع القرشيون الطعام للحجاج فى يوم عرفة لأنهم كانوا يقفون خارج الحرم، وكان العرب يقفون بعرفة[6]. بينما كانت قريش تقف بمفردها داخل الحرم وكانوا يسمون بالحمس[7].

---

(١) ابن هشام : السيرة، جـ ١، ص ١٢٥.

(٢) محمد جمال الدين سرور: قيام الدولة العربية الإسلامية فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، ص ٤٢ : ٤٦.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١، ص ١٦٥.

(٤) الأزرقى : أخبار مكة، جـ ١، ص ١٣٤.

(٥) جواد على : المفصل فى تاريخ العرب، جـ ١، ص ١٣٥.

(٦) الأزرقى : أخبار مكة، جـ ٢، ص ١٣٧.

(٧) الحمس : نسبة الى المتحمسين لدينهم. (الزبيدى: تاج العروس، مادة حمس).

أما السقاية ، فالمقصود بها سقاية[1] الحجاج الماء العذب، وكان يتم إحضار الماء من الآبار الواقعة خارج الحرم ومن المصانع[2] التى قامت قريش بعملها فى رؤوس الجبال من أجل تجميع مياه الأمطار فيها لسقاية الحجاج . وكانت هذه المياه توضع فى حياض من أدم موزعة حول الكعبة، وكانوا يضعون فى بعضها التمر والزبيب من أجل سقى الحجاج[3]. ومن الجدير بالذكر أن السقاية فى عهد قصى بن كلاب، وفى عهد أبنائه من بعده، لم تعتمد على بئر زمزم حيث أن هذه البئر ظلت مغمورة منذ آخر عهد قبيلة خزاعة كما سبق ذكره.

وعادت السقاية من بئر زمزم فى عهد عبدالمطلب جد الرسول صلى الله عليه وسلم، الذى حفر بئر زمزم وعادت الحياض الموزعة حول الكعبة تملأ من ماء زمزم لسقى الحجاج[4].

وبعد وفاة عبدالمطلب انتقلت السقاية الى ابنه أبى طالب، ولكن أبا طالب لم يستمر فى السقاية . ويشرح الفاسى سبب عجز أبى طالب عن السقاية، فقد استدان أبو طالب من أخيه العباس ولم يستطع أن يعيد له الدين، فطلب من أخيه العباس أن يأخذ السقاية مقابل الدين، فوافقه على ذلك[5]. وكان العباس مسئولا عن السقاية حينما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة[6].

ويمكن القول ان وظيفة الحجابة وخدمتى الرفادة والسقاية من أهم الأعمال التى نظمها قصى بن كلاب واستمرت الى أن فتح الرسول صلى الله عليه وسلم ـ مكة، وهكذا يعود الفضل لقصى بن كلاب فى إيجاد هذه الأعمال فى العصر الجاهلى، ولم

(١) السقاية: تولاها بعد وفاة قصى ابنه هاشم، ثم من بعده لعبدالمطلب.
وانظر الأزرقى : أخبار مكة، جـ ١، ص ١١٣.

(٢) المصانع: المقصود بها خزانات المياه التى كانت قريش تخزن فيها مياه الأمطار.
انظر: ابن الضيا: تاريخ مكة، ورقة ١٨.

(٣) الفاسى : العقد الثمين: جـ ١، ص ١٢٥.

(٤) الأزرقى : أخبار مكة، جـ ١، ص ٢١٠.

(٥) المصدر السابق: جـ ١، ص ٢١٣.

(٦) المصدر السابق، جـ ١، ص ٢١٤.

تختلف نوعية الخدمات ببيت الله بعد عصر قصى بن كلاب، لأن الحج ظل ممارسا منذ أن فرضه الله على ابراهيم وابنه اسماعيل عليهما السلام بعد فراغهما من بناء الكعبة. ويعتبر ابراهيم عليه السلام هو أول من أدى مناسك الحج. ويمكننا أن نستشهد بالقرآن الكريم حيث يقول الله تعالى:

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (1).

وإنه من الصعوبة بمكان أن يحدد الباحث الفترة الزمنية التى استمر فيها الحج على دين ابراهيم الحنيف، الا أنه يمكننا القول أن عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر الخزاعى شذ بنسك الحج عن دين الحنيفية. ولقد استمر ما أحدثه عمرو بن ربيعة حتى تم للرسول صلى الله عليه وسلم فتح مكة وتطهير الكعبة المشرفة. ومن الواضح أن استمرار الحج بمكة منذ عهد ابراهيم عليه السلام، قد حفظ شأن مكة ولم يفكر أحد فى منازعة سلطات مكة سوى حاكم اليمن أبرهة الحبشى الذى أراد هدم البيت الحرام فى عام الفيل وهو العام الذى ولد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم.

ومنذ فتح الرسول صلى الله عليه وسلم لمكة أصبح الحج ركنا من أركان الدين الإسلامى. ويعرف الحج فى اللغة بالقصد، فيقال حج إلينا فلان أى قصدنا فلان، ولقد استعمل العرب كلمة الحج لمعان كثيرة(2). والحج شرعا الذهاب الى مكة فى وقت معلوم وفى زمن معلوم لأداء النسك التى فرضها الله على المسلمين وإقامة الشعائر كما أداها الرسول صلى الله عليه وسلم(3).

وبعد فتح مكة على يد الرسول صلى الله عليه وسلم، بدأت صفحة جديدة فى تاريخ مكة المكرمة وخدمات الحج بها. فقد ألغى الرسول صلى الله عليه وسلم

(1) سورة الحج، الآية ٢٦، ٢٧.

(2) الزبيدى: تاج العروس، مادة الحج.

(3) على بن عامر المالكى: الشافى الصغير، مكتبة آل المالكى بمكة ق ٩٥.

الخدمات الجاهلية عدا الحجابة والسقاية[1]. وقد أحضر الرسول صلى الله عليه وسلم، عثمان بن أبى طلحة وأعطاه مفتاح الكعبة وقال له: إن هذه امانة الله أودعها لديكم يأخذها منكم يوم القيامة. وطلب الرسول صلى الله عليه وسلم عمه العباس فأعطاه السقاية[2]، أما الرفادة فقد استبدلت بالهدى والأضحية التى يقدمها الحجاج كفدو فى موسم حج كل عام[3].

وتم أول حج إسلامى بعد سنة من فتح مكة، أى فى السنة التاسعة من الهجرة، وقد ولى الرسول صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق أميرا للحج وأرسل معه على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ من أجل أن يتلو على الناس سورة براءة بالذات على المشركين[4]. وفى يوم عيد الأضحى المبارك وبعد فراغ على بن أبى طالب من قراءة سورة براءة، أعلن للمشركين أن لا يدخل البيت بعد هذا العام مشرك، وألا يطوف بالبيت عريان ومن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فأجله الى مدته[5]. ولقد أعلنت بقية قبيلة قريش (التى لم تكن دخلت فى الإسلام) اسلامها. وبعد فراغ الحج ذهبت بعض القبائل العربية للمدينة المنورة لتعلن إسلامها للرسول صلى الله عليه وسلم. ويسمى هذا العام بعام الوفود[6].

وقد ازداد عدد الحجاج من المسلمين من بعد فتح مكة المكرمة وفى الأعوام التالية لعام الوفود[7]. لذا يمكن القول أن الحياة الاقتصادية لمكة وخاصة فى فترة موسم الحج قد زاد ازدهارها. فلقد كانت الحياة الاقتصادية فى مكة فى العصر الجاهلى تعتمد على التبادل التجارى طيلة العام لاسيما أن مكة تقع فى ملتقى الطرق التجارية بين جنوب

---

(١) ابن هشام: السيرة، جـ ٤، ص ٢١٠.

(٢) المصدر السابق، جـ ٤، ص ٢١٢.

(٣) السيوطى: تنوير الحوالك شرح موطأ مالك، جـ٣، ص ١٠٥.

(٤) ابن هشام: السيرة، جـ ٤، ص ٢٥٥.

(٥) المصدر السابق: جـ ٤، ص ٢٥٦.

(٦) ابن هشام: السية، جـ ٤، ص ٢٦٠.

(٧) جواد على: المفصل فى تاريخ العرب، ص ١٨٦: ٢٠٦.

شبه الجزيرة العربية وشمالها وشرقها[1]. كما كان لفترة موسم الحج فى الجاهلية أثرها فى زيادة التبادل التجارى خاصة فى الأسواق العربية الثلاثة، وهى عكاظ ، مجنة، ذوالمجاز[2]. وبذلك لم تفقد مكة حيويتها التجارية بل زادت وازدهرت بعد الفتح وبعد عام الوفود وارتبط هذا الازدهار بزيادة عدد الحجاج من المسلمين عاما بعد عام.

ولم تكد هذه الحيوية التجارية المزدهرة مقصورة على مدينة مكة، بل إن الأسواق العربية الثلاثة التى ذكرناها ظلت تمارس نشاطها التجارى أثناء موسم الحج، وفى العصر الإسلامى حتى سنة ١٢٩هـ تقريبا[3]ولاشك أن الطرق التجارية بين جنوب شبه الجزيرة العربية وخاصة بلاد اليمن وبلاد حضرموت وبين شمال شبه الجزيرة خاصة دمشق ومصر كانت تمر بمكة[4]. وهذا كان له أثره فى استمرارية النشاط التجارى بمكة طيلة العام. ويمكننا أن نضيف الى أهمية موقع مكة أيضا ارتباط الطريق التجارى الشرقى لشبه الجزيرة العربية بها. ولقد كانت هذه الطرق التجارية هى مسلك الحجاج من المسلمين الى مكة لأداء المناسك تحت لواء أمير الحج.

وقد اقترنت إمارة الحج بالحج منذ أول حج إسلامى فى السنة التاسعة من الهجرة. ولعل أعظم واجب ديني يقوم به الإنسان تجاه المجتمع العدل فى الإمارة، وغالبا ما تكون الإمارة فى شخص لا تتوافر فيه مؤهلات الإمارة، ولكن إمارة الحج لها شروط وواجبات لابد من مراعاتها والتمشى بموجبها والحرص على سلامة الحجاج فى طريقهم لأداء النسك. ولقد استمرت إمارة الحج بعد السنة العاشرة من الهجرة وهى السنة التى حج فيها الرسول صلى الله عليه وسلم حجة الوداع.

ويجدر بنا أن نذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم فى حجته عرف الناس بأمور

(١) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب جـ ٤، ص ٢٠٨.
(٢) الأزرقى: أخبار مكة، جـ ١، ص ١٨٧.
- الفاسى: شفاء الغرام، جـ ١، ص ٢٨٠.
(٣) الأزرقى: أخبار مكة، جـ ١، ص ٢٨٠.
- الفاسى: شفاء الغرام، جـ ٢، ص ٢٨٣.
(٤) جواد على: المفصل فى تاريخ العرب، جـ ٤، ص ١١٤: ٦

دينهم وشرح لهم مناسكهم وخطب خطبة الوداع التى أوفى فيها تعاليم الدين الإسلامى . والأجدر بنا أن نذكر أيضا أن الرسول صلى الله عليه وعليه قد حدد أيام الحج وأن الحج أصبح فى شهر ذى الحجة من كل عام . وفى هذا الصدد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : (إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض) والمقصود بقوله صلى الله عليه وسلم أن الحج قد عاد الى ما كان عليه فى زمن ابراهيم الخليل عليه السلام[1].

وارتبطت إمارة الحج بمقر حاضرة الخلافة الإسلامية، فكان أمير الحج يخرج من المدينة معيناً من قبل الخليفة اذا لم يقم الخليفة نفسه بها. وبعد أن اتسعت رقعة الدولة الإسلامية وازداد عدد المسلمين الوافدين لأداء الحج فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، بعد أن فتحت الشام والعراق ومصر أصبحت القوافل الإسلامية الخارجة من هذه الأمصار قاصدة مكة للحج تنضم تحت لواء أمير الحج من المدينة المنورة. ويجدر بنا الإشارة هنا الى أن الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد أمر فى سنة ١٨هـ لأول مرة ببناء جدار غير عال حول فناء الكعبة[2]، نظرا لازدياد عدد المسلمين الوافدين لمكة من أجل أداء النسك ولضيق مساحة فناء الكعبة لاقتراب مساكن القرشيين منها.

وبعد انتقال حاضرة الخلافة الى الكوفة فى عهد على بن أبى طالب كرم الله وجهه، أصبح أمير الحج من يوليه الخليفة من الكوفة. وبعد انتقال الخلافة إلى البيت الأموى أصبحت حاضرة الدولة الإسلامية دمشق وأصبح أمير الحج يخرج من دمشق معيناً من قبل الخليفة الأموى ومعه الكسوة الشريفة والهدايا التى يقدمها الخليفة للحرمين الشريفين. ولما انتقلت الخلافة الى البيت العباسى، أصبحت حاضرة الخلافة الإسلامية بغداد. وأصبح أمير الحج يخرج من بغداد وتتبعه باقى القوافل. وعندما انتقلت الخلافة الفاطمية سنة ٣٥٨هـ الى مصر استطاعت أن تبسط سلطانها على

(١) الحلبى : السيرة الحلبية، جـ ٢، ص ١٤٥.
(٢) ابن هشام : السيرة، جـ ٤، ص ٢٦٠.
- الأزرقى : جـ ١، ص ٨٠.

الحجاز، وأصبح أمير الحج يخرج من القاهرة من قبل الخليفة الفاطمى[1]. ولما قويت الخلافة العباسية مرة ثانية تمكنت من استعادة نفوذها على الحجاز فعاد أمير الحج يعين من بغداد[2]، واستمر ذلك حتى نهاية الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ[3].

وهكـذا ارتبـطت إمـارة الحج بالحج، وأصبح خلفاء الدولة الإسلامية يهتمون بتقديم الخدمات للحجاج من أجل راحتهم وتأمين السلامة لهم فى طرق الحج المؤدية الى مكة المكرمة والمدينة المنورة.

(١) الجزيرى: درر الفوائد، ص ١٨٩.

(٢) الجزيرى: درر الفوائد، ص ١٩٠.

(٣) أبوالفداء: المختصر، جـ٣، ص ٤٢.

ثانيا: المدينـــة المنـــورة :

أ - نبذة جغرافية عن المدينة المنورة :

تقع المدينة المنورة شمال مكة المكرمة وتبعد عنها بثلاثمائة ميل تقريبا، وموقعها هذا يجعلها ضمن منطقة السلسلة الجبلية للدرع العربى. ولقد ذكر ياقوت أن المدينة حجازية[1]. فهى بعيدة عن منطقة سهل تهامة وتجاورها بعض الحرات لوقوعها ضمن المنطقة الجبلية. فالمدينة المنورة تنحصر بين لابتين بركانيتين تعرفان بالحرتين، حرة واقم فى الشرق، وحرة الوبرة فى الغرب، كما يقع جبل عير فى الجنوب الغربى منها[2].

ويضيف الأصطخرى معتمدا على ياقوت أن القائم بأعلى جبل عير يرى وادى العقيق الى يساره ممتدا غربى المدينة فيما وراء حرة الوبرة الى ما بعد بئر روت من شمالها الغربى. ويرى العريض وعوالى المدينة الى يمينه من شرق حرة واقم، بينما يجد جبل أحد وجبل سلع شمال المدينة المنورة وقرية قباء على بعد ميلين جنوبها[3].

وتخترق منطقة المدينة المنورة عدة أودية حيث أنها تكتنف حرة واقم وحرة الوبرة. ومن أهم هذه الأودية، وادى بطحان، ووادى رانوناء حيث يجريان فى جنوب المدينة ويتجهان شمالا ويلتقيان بوادى قناة الماء فى شماليها[4] ويمكن القول أن ملتقى هذه الأودية هى منطقة رومة وزعابة فى شمال غربى المدينة المنورة حيث ينتهى وادى العقيق، وحيث تلتقى الأودية التى أشرنا اليها. ويمكننا أيضا أن نصف انحدار الأودية فى منطقة المدينة المنورة بأنها تنحدر من الشرق والجنوب فى اتجاه شمال غربى المدينة المنورة.

هذا وموقع المدينة المنورة إلى الشمال من مدار السرطان جعلها ألطف مناخا من مكة

---

(١) ياقوت: معجم، جـ ٢، ص ٢١٩.

(٢) المصدر السابق، جـ ٥، ص ٧٩.

(٣) الاصطخرى: مسالك الممالك، ص ٢٣.

(٤) أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص ٢٨٧.

المكرمة التى تقع الى الجنوب من مدار السرطان. وتخترق المدينة المنورة دائرة العرض الشمالى ٣٠ و٢٤ درجة، وخط الطول الشرقى ٤٥ و٣٩ درجة[١]. ويعد تعارض درجات دوائر العرض بين مكة والمدينة المنورة بثلاثة درجات عاملاً مهما فى تلطيف مناخها.

وصف سطح المدينة المنورة ووفرة المياه فيها :

إن اتجاه انحدار الأودية فى منطقة المدينة المنورة يبرز انحدار السطح للمدينة المنورة بشكل عام. فسطح المدينة المنورة ينحدر من الجنوب الشرقى الى الشمال الغربى، وكان لتعدد الأودية الجارية على هذا السطح أثره فى غزارة مياه المدينة المنورة. ولقد اقترنت غزارة المياه فى منطقة المدينة المنورة بجودة تربتها التى تكونت عن طريق هذه الأودية المختلفة وما جرفته من رواسب فيضية الى منطقة محاطة بالحرات من الشرق والغرب وبجبال غير بركانية من الشمال والجنوب. ولقد دعت طبيعة سطح المدينة المنورة كثيرا من المؤرخين والجغرافيين الى وصفها بواحة خصبة التربة غزيرة المياه[٢]. فغزارة المياه فى المدينة المنورة لا ينحصر فى المياه الجارية على سطح الأودية نتيجة لهطول الأمطار وانما تنضم اليها غزارة المياه الجوفية المعتمدة على مياه السيول. ودعا هذا سكان المدينة الى التركيز على المياه الجوفية والاستفادة منها، فأكثروا من حفر الآبار فى المناطق الزراعية وفى الدور من أجل سقياهم. وبالاضافة إلى الآبار، توجد بعض العيون التى تكونت عن انبثاق المياه من الشقوق الصخرية أو نبعها من خلالها .

ب ـ النشاط الاقتصادى لأهل المدينة المنورة :

إن النشاط الاقتصادى فى المدينة المنورة متعدد العناصر إلا أن العنصر الرئيسى يتمثل

(١) الخريطة الجغرافية لشبه الجزيرة العربية ١٩٦٣م، الثروة المعدنية طبعة مصلحة المساحة الجيولوجية الأمريكية.

(٢) ياقوت: معجم، جـ ٥، ص ٨٠ـ ٨٥.

ـ الاصطخرى: مسالك الممالك، ص ٢٣ـ ٢٥.

ـ أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص ٢٨٧ـ ٢٨٩.

فى النشاط الزراعى ، وذلك لوفرة المياه وخصب التربة ، ولعل سكان المدينة المنورة الأوائل بدأوا نشاطهم الاقتصادى بالزراعة . إلا أن النشاط الاقتصادى للسكان الأوائل فى المدينة المنورة غير واضح ، وذلك لعدم وجود كتب تاريخية عنهم .

ويذكر أن اسم يثرب قد ذكر فى الكتابات المعينية واستنتج من هذا أن المعينيين ربما استعمروها حيث كانت لهم مستعمرات على طول طريقهم التجارى من اليمن حتى تخوم الشام ، فلربما كانت يثرب مستعمرة لهم ومحطة لتجارتهم على غرار مستعمراتهم في شمال يثرب على طول طريق وادى القرى[1] . وقد يصح القول بأن جاليات من معين قد سكنت يثرب ، كما سكنها السبئيون بعد زوال مملكة معين .

ولقد حاول عدد من المؤرخين والعلماء المهتمين بدراسة المدينة تفسير أسماء المدينة المنورة وربطها بسكانها الأوائل . ويعتقد أن اسم المدينة جاءت من كلمة (مدينتا) وتعنى الحمى وأن هذه التسمية قد أتت عن طريق اليهود المتأثرين بالثقافة الأرامية ، أو عن طريق المتهودين من بنى آدم الذين دعوا باسم (مدينتا) ومنها جاءت تسميتها بالمدينة . أما كلمة مدينة على أنها اختصار من مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيعتقد أنه رأى متأخر قال به العلماء[2] . ويذكر البتنوتى صاحب كتاب الرحلة الحجازية أن بعض جنود موسى عليه السلام قد سكنوا يثرب بعد أن قضوا على العماليق ، وأن موسى عليه السلام أرسل هؤلاء الجند بعد أن خرج ببنى اسرائيل من مصر . لذا يعتقد أن اسم يثرب اسم محرف من الكلمة المصرية (أسريس) كما أن اسم (طيبة) الذى استعمل اسما للمدينة مأخوذة عن (طيبة) المصرية[3] . بينما يذكر المسعودى أنها سميت يثرب نسبة الى يثرب بن قاين بن ماهانول بن عبيل بن عوص بن أرم بن سام بن نوح ، وكان أول من نزلها فسميت باسمه[4] . ويذكر لنا ابن هشام أن يثرب اسم مأخوذ عن

---

(١) جواد على : المفصل فى تاريخ العرب ، جـ ٤ ، ص ١٨٠ .

(٢) الخزاعى : الدلالات السمعية ، ورقة ١٠٨ .

(٣) البتنونى : الرحلة الحجازية ، ص ٥٢ .

(٤) جواد على : المفصل فى تاريخ العرب ، جـ ٤ ، ص ١٨٣ .

ـ عبدالقدوس الأنصارى : آثار المدينة ، ص ١٢٤ .

التثريب، ويزعم السمهودى أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما نزلها كره أن يدعوها يثرب كراهية للتثريب، فدعاها طيبة وطابه(1). ولعل أقرب أسماء المدينة صحة هو أقربها الى التاريخ الإسلامى فتاريخ المدينة الواضح هو تاريخها منذ القرن الذى سبق الهجرة النبوية، أى منذ بداية القرن السادس الميلادى(2).

ولاشك أن منطقة المدينة كلها منطقة خصبة، إلا أن أخصب أجزائها هو الجزء الجنوبى الشرقى، والجزء الشرقى حيث حرة واقم. ولقد سكن حرة واقم قبائل اليهود من بنى النضير وقريظة، وسكنتها أيضا أهم البطون الأوسية وأكبرها بطن بنى عبدالأشهل الذين أقاموا حصناً لهم سموه بحصن واقم نسبة الى حرة واقم(3). ولاتزال هناك بقايا من أطلال هذه الآطام(4) حتى زمن الاصطخرى فى القرن الرابع الهجرى.

إن حرة واقم غدت ميدانا للحرب منذ استقر الإسلام بالمدينة، فقد حاصر النبى صلى الله عليه وسلم، اليهود من بنى قريظة حتى قضى عليهم، ومن قبل بنى النضير حتى أجلاهم، وشهدت هذه المنطقة موقعة الحرة فى عهد يزيد بن معاوية سنة ٦٣هـ(5). لذا يمكن القول أن منطقة حرة واقم فى شرق المدينة المنورة كانت أكثر عمرانا من منطقة حرة الوبرة فى غربها حين هاجر النبى صلى الله عليه وسلم من مكة اليها سنة ٦٢٢م.

وتمتد حرة الوبرة فى غرب المدينة المنورة من ذى الحليفة جنوبا الى منطقة بئر روت مجتمع أسيال أودية المدينة شمالا، ويذكر أن بطونا من اليهود كانت تسكن منطقة بئر روت وأن هذه البئر كانت لرجل يهودى يبيع ماءها للمسلمين فاشتراها منه عثمان بن عفان رضى الله عنه، استجابة لرغبة النبى صلى الله عليه وسلم، ودفع فى ثمنها

---

(١) السمهودى: وفاء الوفاء، جـ ١، ص ١٥٣.
(٢) المسعودى: مروج الذهب، جـ ٢، ص ١٤٨.
- البتنونى: الرحلة الحجازية، ص ٥٣.
(٣) ياقوت: معجم، جـ ٥، ص ٩٣.
(٤) الاصطخرى: مسالك الممالك، ص ٢٥.
(٥) الطبرى: تاريخ، جـ ٤، ص ١٠٦.

عشرين ألف درهم[1]. وحيث أن منطقة حرة الوبرة كانت أقل عمرانا من منطقة حرة واقم، فإن وادى العقيق الى الغرب من حرة الوبرة كان له أثر كبير فى النشاط الاقتصادى وخاصة الزراعة، وذلك لكثرة مياهه وخصبة تربته. ولذلك أقيمت عدة آطام (حصون) على امتداد هذا الوادى[2].

وتعتبر الزراعة النشاط الرئيسى لسكان يثرب، وهى الحقيقة التى نصل اليها عن طريق الشواهد الكثيرة التى مارسها السكان فى الجاهلية وفى صدر الإسلام عن طريق حاصلاتها الزراعية التى اشتهرت بها، وأهمها التمر الجيد الذى يشكل المحصول الرئيسى فى النشاط الزراعى. ونفهم ذلك من نصوص كثيرة منها الحوار الذى دار بين الرسول صلى الله عليه وسلم وسعد بن معاذ ابان غزوة الخندق حين عرض النبى صلى الله عليه وسلم على بعض الأحزاب أن ينصرفوا ولهم ثلث ثمار المدينة، وناقش فى ذلك الأنصار. فقال سعد بن معاذ بعد أن سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أهذا الأمر وحى، أم هو كيد؟»، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنه رأى، وإنني قد وجدت قوة العرب فأحببت أن أصرفهم عنا حتى نستطيع أن نقاومهم بعد ذلك». فقال سعد: «والله يارسول الله لقد كنا ونحن أهل شرك وأوثان لا يطمع واحد منهم أن يأخذ ثمرة من ثمارها الا بثمنها. أفبعد أن أكرمنا الله بك نعطيهم أموالنا؟ والله ما نعطيهم الا السيف[3].

ومن الجدير بنا أن نشير الى أن ثمار المدينة كثيرة ووفيرة، ولهذا لجأ الرسول صلى الله عليه وسلم الى اغراء الغزاة بثمارها مقابل الانسحاب، فرضوا بالانسحاب. وكانت ثمار المدينة فى العصر الجاهلى وحتى الوقت الحاضر تفيض عن حاجة سكانها، ولذلك قام بينهم وبين القبائل العربية تبادل تجارى كبير[4].

ويعتبر التمر الغلة الرئيسية لسكان المدينة، وتنبثق منه عوائد اقتصادية فرعية، فالى

---

(١) الطبرى: تاريخ، جـ ٣، ص ٨٢.

(٢) جواد على: المفصل، جـ ٤، ص ١٨٥.

(٣) السمهودى: وفاء الوفاء، جـ ١، ص ١٦٨.

(٤) المصدر السابق: جـ ١، ص ٢١٠.

جانب التمر كطعام، فالنوى علف لإبلهـم، وقد كان ذلك ما يميز إبل المدينة. وكل دارس يعلم أن أبا سفيان قد ساحل بالعير عندما وجد نوى يثرب فى بئر الابل عند الماء فى الطريق فعلم أن عيون المسلمين ترصد القافلة، فاتجه بها الى طريق الساحل[١].

ومن المعلوم أن سكـان المـدينة يستفيدون من جريد النخيل وسعفها وليفها فيما يصنعون منه أو يستخدمونه فى حاجاتهم.

ولـما كانت زراعات النخيل تنتشر بين مساحات خالية، كان ذلك فرصة لقيام زراعات محصولية أخرى، وتلك حقيقة مازالت قائمة فى زراعات النخيل حتى اليوم، وأهم ما كان يزرع فى تلك المساحات الشعير، وهو طعام شائع فى ذلك العصر فى مثل تلك البقاع، وكان محصوله يسد جانبا كبيرا من احتياجاتهم الى الحبوب. كما توجد محاصيل أخـرى ولكنها أقل فى الكمية من التمر والشعير كالقمح والكروم وبعض الفواكه كالرمان والليمون وشىء من القثاء والبقول وأصناف أخرى من المحاصيل[٢].

وعلى هذا فقد كانت الحرفة السائدة لسكان يثرب هى الزراعة سواء كان فى أرض مملوكة أو مكتراه على جزء من الغلة أو جزء من الأرض. وقد كانت عوالى المدينة هى أخصب النواحى فيها، وكانت الأرض وزراعتها أنفس المال فى عيون أهل يثرب ولقد اهتموا بها. ويتضح لنا من حصار الرسول صلى الله عليه وسلم لليهود. فقد كانت آطـامهم التى تحصنوا بها موفورة المؤنة تسمح لهم بالمسير على الحصار فترة طويلة، ولذلك أمر النبى صلى الله عليه وسلم بتقطيع بعض النخيل لما يعلمه من شدة وقع ذلك فى نفوسهم. فصاحوا: يامحمد، قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض، فما بالك تقطع النخيل؟[٣]، فنزل قوله تعالى:

﴿ مَاقَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[٤].

(١) ابن هشام: السيرة، جـ٣، ص ١٣٦: ١٣٨.
(٢) اليعقوبى: تاريخ، جـ٢، ص ٣٦.
(٣) ابن هشام: السيرة، جـ٣، ص ٣٠٥.
(٤) سورة الحشر - الآية.

أما الأراضى التى لا تصلح للزراعة المحصولية مثل منطقة زغابة[1] والغابة[2]، والربذة[3] ونقيع الخضمات[4]، فقد كانت مراعى يرعى فيها أهل يثرب أنعامهم وإبلهم. وفى الإسلام حمى النبى صلى الله عليه وسلم بعض هذه المناطق كالربذة وجعل فيها إبل الصدقة ونقيع الخضمات حماها لخيل المسلمين[5].

ويتضح لنا أن الرعى كان النشاط الاقتصادى ذا الأهمية التالية للزراعة، وهو حرفة مرتبطة بالماء والأمطار.

أما الصناعة فهى ضرورة تصحب كل نشاط اقتصادى حتى فى صورته البدائية. فمنذ أن كان الصياد الأول، كانت صناعة أدوات الصيد واستغلال جلود الصيد وعظامه وشعره فى منافع شتى يترفق بها الناس فى حياتهم اليومية، وكلما تعددت الأنشطة كثرت دواعى الصناعة، وكلما أخذت الحياة صورة الاستقرار والتمدن كلما كانت الحاجة إلى النشاط الصناعى وتنوع مجالاته أكثر وأكثر.

والمدينة منذ أزمان سحيقة تجمّع حضارى له مقومات التمدن فى حدود ما يتيحه كل عصر بساطة أو تعقيدا. فنواتج الزراعة فى المدينة تعطى مادة للتصنيع. واحتياجات الحضر الى الأبنية وغيرها وطموحهم الى ألوان من الترفيه تستدعى صناعات كثيرة، منها ما يجتلب ومنها ما يصنع محليا، وضرورات الحرب أيضا تستدعى مثل ذلك. فمنتجات السعف والجريد والليف وما يحتاجه الناس فى بيوتهم ولدوابهم وحلهم وترحالهم كان من الأنشطة الصناعية فى المدينة، يساعد على ذلك وجود المواد الأولية وكثرة الحاجة والطلب[6]. ولقد قامت فى المدينة صناعة الأثاثات الخشبية لوجود الأخشاب فى غابة المدينة، وكان استعمال الكراسى معروفا عندهم،

(١) زغابة: تقع فى أقصى الشمال الغربى للمدينة.

(٢) الغابة: تقع فى الشمال الغربى من المدينة.

(٣) الربذة: تقع فى طريق مكة المدينة، انظر جواد على: المفصل، جـ ٤، ص ١٨٨.

(٤) نقيع الخضمات: تقع فى شرق المدينة المنورة: المرجع السابق، جـ ٤، ص ١٨٩.

(٥) ياقوت: معجم، جـ ٥، ص ١٢٣.

(٦) أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص ٣٤٩.

خصوصا عند أغنياء اليهود، يصنعونها من الخشب ويجعلون أرجلها من الحديد، كما كانت صناعة الأبواب والمفاتل والزنابيل والحبال وغيرها من نواتج النخيل أمرا شائعا معروفا[١].

ومن المعلوم أن العمران يقتضى قيام الصناعات المتعلقة بإقامة المبانى من نحت حجارة وصناعة أبواب وغيرها. والحاجة الى الفؤوس والمحاريث والمساحى والمناجل، والحاجة الى هذه الآلات وغيرها ساعد على قيام الصناعات، وأهمها: صناعة الحدادة. ولخبرة اليهود فى المجال الصناعى، جعلهم يسيطرون على الصناعة واشتهروا بصناعة الحلى، فقاموا بصناعة الخواتم والخلاخيل والعقود، واستخدموا الذهب والمجوهرات والأحجار الكريمة[٢].

وأنعشت الحروب الدائمة فى المدينة صناعة الأسلحة، فبدأ اليهود يقومون بصناعة الأسلحة المختلفة التى يستلزمها الحرب بالاضافة الى أنهم اهتموا بصناعات الآلات الخاصة بالصيد[٣].

ولقد انتشرت الحياكة فى جميع بيوت المدينة وكان يقوم بها النساء، كما كن يقمن بعمل الغزل والنسيج، أما بعض الرجال، فكانوا يقومون بعمل الدباغة وصناعة الفخار والأوانى النحاسية. وكانت الجاليات من الأحباش والروم والفرس الذين دخلوا واستوطنوا المدينة فى العصر الجاهلى هم الذين يقومون بهذه الصناعات[٤].

التجارة الداخلية والخارجية وطرق القوافل :

لم تختلف يثرب فى حياتها عن حياة المدن والقرى بما فيها من أعمال دائمة زراعية أو صناعية أو تجارية.

(١) السمهودى: وفاء الوفا، جـ ٢، ص ٣٢١.
(٢) المرجع السابق: جـ ٢، ص ٣٢٣.
(٣) الخزاعى: الدلالات السمعية، ورقة ٦٦٩.
(٤) السمهودى: وفاء الوفا، جـ ٢، ص ٣٤٣.

فتربتها الخصبة أغنت أهلها عن التغرب والترحال ابتغاء الرزق والى جانب ذلك طبيعة كونها مدينة وحولها القرى والاعراب جعل فيها حركة تجارية رائجة، فقد ورد فى القرآن الكريم آيات مدنية كثيرة، فيها بعض الأوامر والنواهى والتشريعات التى توحى أنه كان فى المدينة حركة تجارية غير ضعيفة قبل الإسلام(١).

كانت التجارةالداخلية فى يثرب نشيطة سواء بين أهلها أنفسهم أو بينهم وبين جيرانهم من الأعراب الذين كانوا يفدون اليها لتصريف منتجات البادية من إبل وغنم وخيل وصوف ووبر وسمن. هذا إلى جانب صناعة الصياغة حيث كانت تمون ما حولها من مدن بما تحتاج اليه من حلى لنسائهم وبناتهم، وصناعة الأسلحة والدروع والآلات الزراعية(٢).

فقد كانت فيها أسواق عدة لتسويق البضائع وتصريف التجارة، أهم هذه الأسواق هى:

أ - سوق بنى قينقاع عند جسر وادى بطحان مجاور لمنازلهم، وكانت سوقا تكثر فيها حركة البيع والشراء والتعامل.

ب - سوق زبالة فى الشمال الغربى من المدينة، وهذا السوق عظم أمره بعد الإسلام.

جـ - سوق بالعصبة وسوق بمزاحم عند مساكن بنى حبلى عشيرة عبدالله بن أبى.

د - سوق بقيع الخيل، قرب البقيع، كان بنو سليم يجلبون اليها الخيل والإبل والغنم والسمن(٣).

وكانت تجارة المدينة من تمر وشعير وطعام وخمر وحطب تباع وتشترى فى هذه الأسواق، هذا الى جانب ما يأتى إلى هذه الأسواق من خارج المدينة من منتجات

---

(١) البتنونى: الرحلة الحجازية، ص ٢٥٣.

(٢) المرجع السابق: ص ٢٥٤.

(٣) ياقوت: معجم، جـ ٥، ص ١٨٥.

البادية إلى جانب المصنوعات فى المدينة وخارجها من سلاح وآلات زراعية ومنسوجات قطنية وحريرية وأنواع العطارة والروائح العطرية[1].

وإلى جانب البيع والشراء كان هناك أناس يعملون بالصيرفة وكانوا يبيعون الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، واستبدال النقود وكسرها[2]. وكانت السمسرة حرفة يحترفها بعض الناس، حيث يقولون: البيع نيابة عن أصحاب البضائع[3].

ورغم هذه الحركة التجارية فلم تكن هناك هيئة حكومية تقوم بدور الرقابة على البيع والشراء وضبط المكاييل وحماية السذج من البدو من الوقوع فى يد المحتالين والغشاشين. فكان البيع والشراء مجازفة أدى الى ظهور المناجشة وهى تلقى الركبان قبل الوصول الى المدينة وشراء ما لديهم قبل علمهم بالثمن الحقيقى لبضاعتهم وأدى هذا إلى احتكار مثل هذه البضائع فكان الغش والمخادعة أمرا جاريا فى الأسواق، فكانوا يبلون الحنطة والشعير ليكثر كيلها ويخفى الردىء داخل الطيب، وكان البيع بالنسيئة[4]، والرهن من وسائل البيع[5].

وكان فى المدينة أيضا بيع الدور والأرض والمزروعات قبل أن يظهر محصولها ويقدر، فكان يحدث بسبب ذلك خسارة من كلا الوجهين، فقد كانت فى بعض الأحيان تصاب الثمار بالأمراض والفساد فتكون الخسارة للبائع والمشترى لحاجة كل منهما للآخر[6].

أما الربا، فقد كان مظهرا من مظاهر الحركة الاقتصادية والتجارية ووسيلة من وسائل التعامل فى المجتمع العربى بعامة، وفى المدينة بخاصة، وكان يزاول فى المدينة مزاولة كبيرة بين أهلها أنفسهم، وبين الوافدين اليهم، وكان العرب واليهود يزاولونه

---

(١) السمهودى: وفاء الوفا، جـ ٢، ص ٥٤١.

(٢) المصدر السابق: جـ ٢، ص ٥٤٣.

(٣) الخزاعى: الدلالات السمعية، ورقة ٦٤٤.

(٤) النسيئة: تأجيل الثمن.

(٥) الخزاعى: الدلالات السمعية، ورقة ٦٤٩.

(٦) السمهودى: وفاء الوفا، جـ ٢، ص ٥٤٦.

على السواء. وقد ندد القرآن الكريم باليهود ونهاهم عن الربا وأكلهم أموال الناس بالباطل[1].

ولتغلغل الربا فى الحياة التجارية فى المدينة ندد القرآن الكريم فى ابطال التعامل به فبدأ بالنهى ثم التحريم كاملاً بعد أن بين أضراره[2]

وبعد قيام الدولة الإسلامية فى يثرب بعد الهجرة، عمل النبى صلى الله عليه وسلم على تنظيم البيع والشراء والمعاملات ونهى عن الوسائل غير الشريفة فيه، فمنع السمسرة، وتلقى الركبان خارج المدينة، والغش، وبيع المزروعات قبل أن يعرف صلاحها، وأمر بالكيل والوزن أساس فى المبايعة، ومنع بيع المجازفة، بل وأمر بضرب من يبيع جزافا، كما قضى برد كل بيت استعملت فيه المناجشة والخداع[3].

وبذلك وضعت التشريعات لتنظيم التجارة فى المدينة وقامت الدولة على مراقبتها وتنظيمها، فأدى هذا إلى رواج التجارة الداخلية لما فى هذه التشريعات من نشر للثقة فى نفوس البدو الوافدين وعرب المدينة أنفسهم فزاول المهاجرون ـ إلى جانب أهل المدينة ـ البيع والشراء وجنوا من وراء ذلك ثروات كبيرة[4]. فظهر ذوو الثروة بعد الهجرة إلى المدينة من المهاجرين أمثال: عثمان بن عفان رضى الله عنه، وعبدالرحمن بن عوف، حتى لقد أسهم عثمان فى تجهيز جيش تبوك بتسعمائة وخمسين جملا وخمسين فرسا، وألف دينار[5].

وقد أضر هذا التنظيم باليهود الذين كانوا يستغلون الفساد لتكوين ثرواتهم. ولوقوع المدينة على طريق قوافل التجارة، اشترك تجار المدينة فى الأسفار التجارية، كما كان يقوم أهل مكة، وقاموا بالرحلات التجارية الخارجية ودفعهم الى ذلك احتكاكهم

---

(١) أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص ٣٥٨.

(٢) المرجع السابق: ص ٣٦٠.

(٣) ابن هشام: السيرة، جـ ٣، ص ٢٣٣ـ ٢٣٦.

(٤) السمهودى: وفاء الوفا، جـ ٢، ص ٥٢٠.

(٥) ابن هشام السيرة النبوية، جـ ٢، ص ١٧٩.

ـ ابن قتيبة : المعارف، ص٦٧.

بقوافل تجار مكة الذين يرحلون إلى الشام وإلى اليمن، مارين بالمدينة فيبيعون ويشترون معهم ما يلزمهم من أقمشة قطنية وحريرية وما يحتاجون إليه من زيت ونبيذ، كما كانوا يصرفون إليهم صناعاتهم من حلى وأسلحة، وقاموا برحلات خارجية للشمال والجنوب لجلب ما يلزمهم من خامات الذهب والحديد والأحجار الكريمة من مصادرها فسافروا بالبر وركبوا البحر فى سبيل ذلك، فكان للمدينة على البحر الأحمر موانىء تقلع منها السفن وترسوا فيها[1].

ورغم أن يثرب لظروفها الداخلية لم تقو على منافسة مكة فى مجال التجارة فى الفترة التى سبقت الإسلام، إلا أنها نافستها منافسة خطيرة بعد الهجرة النبوية وقيام الدولة الإسلامية بها[2].

فبعد أن استقر المسلمون فى المدينة اتجهوا الى التجارة الخارجية الى جانب التجارة الداخلية، فقد عمل رجال من المهاجرين، أمثال طلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام وسعيد بن زيد فى تجارة القوافل، فكانوا يرحلون الى الشام ويجلبون منها التجارة، وشيئا فشيئا تحول الزمام الى المدينة بعد أن صارت عاصمة الدولة العربية الإسلامية.

والأهم من كل ذلك أن المدينة اكتسبت قداستها فى الإسلام باعتبارها دار الهجرة وبها تقرر من حرمتها[3] شأنها شأن مكة، وباعتبارها مثوى الرسول صلى الله عليه وسلم ووجود مسجده بها، وأصبح المسلمون يقصدونها بعد أداء الحج للزيارة، وهذا أدى إلى قيام خلفاء المسلمين بالعمل على توفير الخدمات للمسلمين أثناء زيارتهم لها، وبتوفير الراحة والأمن لهم فى الطرق التى يسلكونها إليها.

(١) السمهودى: وفاء الوفا، جـ ٢، ص ٥٢٣.

(٢) ابن قتيبة: المعارف، ص ٧٠.

(٣) عن حرمة المدينة التى تقررت لها بمقتضى الصحيفة التى عقدها الرسول صلى الله عليه وسلم مع اليهود بعد هجرته اليها.
انظر محمد جمال الدين سرور: قيام الدولة العربية الإسلامية، ص ٩٥، ٩٦.

الفصـل الثانـى

خدمات الحجاج ومرافق الحج فى مكة المكرمة

١ - توفير المياه فى مكة :

أ - بئر زمزم.

ب - الآبـار.

جـ - العيـون .

٢ - السيول وأثرها فى مكة المكرمة .

٣ - توفير الطعام للحجاج خلال موسم الحج .

٤ - توفير السكن للحجاج خلال فترة الموسم :

أ - سكن الحجاج من دور أهل مكة .

ب - الأربطة ودورها فى اسكان الحجاج .

جـ - المدارس فى مكة ودورها فى سكن الحجاج .

مكــة المكرمــة :

توفير المياه فى مكة المكرمة :

أصبحت لمكة أهمية كبرى بعد بناء البيت الحرام، اذ بدأت تقطنها القبائل العربية بعد أن أصبح بئر زمزم المصدر الوحيد للحياة فيها. هذا ولم يقم الجراهمة بأية أعمال للبحث عن المياه فى مكة لاعتمادهم على بئر زمزم[1] غير أن قبيلة خزاعة أخذت تهتم بتوفير المياه وحفر الآبار لها خارج مكة فى طرق القوافل[2]. كما أن القرشيين حفروا آبارا داخل مكة بعد أن كثر سكانها، وزاد عدد الحجاج الوافدين إلى البيت الحرام[3].

وخوفا من الجفاف وانخفاض منسوب المياه فى الآبار، قام أهل مكة بعمل أحواض على رؤوس الجبال وفى داخل الشعاب لتخزين مياه الأمطار فيها لسقاية أنفسهم، ولسقاية الحجاج[4].

وبعد أن تشعبت بطون قريش أصبحوا يهتمون بحفر الآبار، فاهتم عبدالمطلب جد الرسول صلى الله عليه وسلم، باعادة حفر بئر زمزم بعد أن نقصت مياه الآبار، وكذلك المياه المخزونة فى الأحواض، كما أنه اهتم بعمل الأحواض داخل الحرم، وكان يضع فيها الماء لسقاية الحجاج[5]. وقد استمر عبدالمطلب فى سقاية الحجاج حتى توفى، ثم تولى هذا الأمر من بعده ابنه أبوطالب[6].

وحينما تم للرسول صلى الله عليه وسلم فتح مكة اهتم بتوفير المياه التى كان مصدرها الرئيسى الآبار التى حفرت فى العصر الجاهلى، فأصلح الرسول صلى الله

---

(١) البلاذرى: فتوح البلدان، جـ ١، ص ٥٥.

(٢) جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام، جـ ٣، ص ١١٥.

(٣) الأزرقى: أخبار مكة، جـ ٢، ص ١١٠.

(٤) الفاسى: شفاء الغرام، جـ ١، ص ٩٥.

(٥) الأزرقى: أخبار مكة، جـ ٢، ص ١٢٠.

(٦) الأزرقى: أخبار مكة، جـ ٢، ص ١٢٣.

عليه وسلم، بعضها، وجدد البعض الآخر. وقد أشرف على اصلاح هذه الآبار عتاب بن أسيد واليه على مكة[1].

ولما انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى، وتولى أمر الخلافة ابوبكر الصديق رضى الله عنه وخلفاؤه من بعده، أمر المسلمين فاهتموا بتوفير المياه فى مكة من هذه الآبار[2].

وبعد أن آلت الخلافة إلى البيت الأموى، اهتم هذا البيت بحفر الآبار فى مكة وفى أمكنة الحج، كما نهج أهل مكة نهج الأمويين[3].

ولما تولى بنو العباس الخلافة اهتم خلفاؤهم بتوفير المياه من أجل سقاية الحجاج، وسنورد فيما يلى أهم مصادر المياه من آبار وعيون فى هذه الحقبة الزمنية موضوع البحث، وما قام به الخلفاء والولاة من أجل توفيرالمياه لأهل مكة ولحجاج بيت الله الحرام . .

أ- بئر زمزم :

ماء زمزم من المياه المباركة عند العرب فى الجاهلية[4]، كما تذكر لنا الأحاديث الشريفة ما نستدل به على بركة زمزم، فلقد ذكر الشيخان فى صحيحهما قصة أبى ذر الغفارى رضى الله عنه، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم عن زمزم:

(إنها مباركة. إنها طعام طعم. وشفاء سقم)[5]

---

(١) الأزرقي: أخبار مكة: جـ٢، ص ١٢٨.

(٢) النهروالى: الاعلام بأعلام بيت الله الحرام، ص ٩٣.

(٣) الفاسى: العقد الثمين، جـ١، ص ١٥٩.

(٤) يذكر لنا كثير من المؤرخين ما قاله العباس بن عبدالمطلب رضى الله عنه، عن تنافس الناس فى أثناء سقياهم من زمزم فى العصر الجاهلى وتبكرهم به:
انظر: الازرقى: أخبار مكة، جـ٢، ص ٥٢.
الفاسى: شفاء الغرام، جـ١، ص ٩٧.
محب الدين الطبرى: القرى لقاصد أم القرى، ص ٤٤٦.

(٥) البخارى: صحيح، جـ٢، ص ١٠٥.

ويذكر لنا البخارى فى صحيحه ما أخرجه ـ عن قول ابن عباس ـ رضى الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ماء زمزم لما شرب له، إن شربته تستشفى به، شفاك الله، وإن شربته ليشبعك، أشبعك الله، وإن شربته لقطع ظمئك قطعه الله، وهى هزمة جبريل[1]، وسقيا الله اسماعيل)[2].

ولا ريب أن بركة زمزم استمرت على مر العصور منذ زمن اسماعيل بن ابراهيم ـ عليهما السلام ـ ونستدل من الأحاديث الشريفة على أن ماء زمزم من المياه المباركة وأنها مياه صحية ومفيدة للإنسان وشافية لما يشكو من أمراض.

وفى هذا المقام نقول إن سقاية الحجاج من زمزم كان يقوم بأمرها منذ العصر الجاهلى العباس بن عبدالمطلب، ثم أقره على هذا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، بعد فتح مكة[3].

وقد ظل عمل السقاية فى البيت العباسى حتى زوال الخلافة الأموية، وبعد أن آلت الخلافة الى بنى العباس، أسند أمر السقاية فى عهد الخيفة أبى جعفر المنصور سنة ١٣٨هـ الى آل الزبير بن العوام[4].

وكان أول من تولى السقاية من آل الزبير هو أحمد بن محمد بن عبدالله بن ذاكر بن على بن محمد بن الزبير بن العوام. وقد استمرت هذه الأسرة تتولى أمر السقاية حتى الوقت الحاضر[5].

واذا نظرنا فى تاريخ الدولة العباسية، نجد أن خلفاء بنى العباس لم يهملوا أمر السقاية، بل قاموا بخدمات كثيرة فى هذا الصدد منها:

(١) هزمة جبريل: ضربة جبريل على الأرض التى فجرت زمزم، انظر: الزبيدى: مادة هزم.

(٢) البخارى: صحيح: صحيح، جـ ٢، ص ١٠٧.

(٣) الأزرقى: أخبار مكة، جـ ٢، ص ٥٥.

(٤) لقد تولت أسرة الزبير بن العوام أمر السقاية فى مكة المكرمة سنة ١٣٨هـ بأمر الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور وحيث أن هذه الأسرة كانت تتولى رياسة المؤذنين فى مكة، فقد أطلق عليهم اسم بيت الريس، نسبة الى رئاسة التوقيت والآذان فى الحرم المكى.

(٥) انظر شكل رقم (٥) لتوضيح تسلسل أسرة الزبير بن العوام.

١ ـ أن الخليفة أبا العباس السفاح أمر ببناء حجرة بجوار بئر زمزم لمن يتولى أمر السقاية[١].

٢ ـ وأن الخليفة أبا جعفر المنصور أمر فى سنة ١٣٨هـ ببناء قبة على بئر زمزم، وأنه زاد من عدد البرك فى داخل الحرم من أجل سقاية الحجاج بدلا من ازدحامهم على حوض واحد[٢].

٣ ـ وفى سنة ١٧٣ أدى فريضة الحج هارون الرشيد، وأمر أثناء وجوده فى مكة ببناء مظلة المؤذنين فوق بئر زمزم بجوار القبة التى شيدها أبوجعفر المنصور، كما أمر بزيادة عدد البرك فى داخل المسجد الحرام لسقاية الحجاج من ماء زمزم، وأحضر أيضا فى هذه السنة خمسين من الغلمان الخراسانيين وصفوا فيما بين الصفا والمرة من أجل أن يسقوا الحجاج ماء زمزم[٣].

٤ ـ وفى سنة ٢٢٠هـ أمر الخليفة المعتصم بالله ببناء قنوات من الرصاص من أجل إيصال ماء زمزم بالبرك التى بنيت فى المسجد الحرام وأمر بنقش جدران حجرة السقاية بالفسيسفساء ووضع الرخام فى أرض بئر زمزم، كما أمر بوضع الشباك الحديدى عليها[٤].

٥ ـ وفى سنة ٢٤٠هـ فى عهد الخليفة المتوكل على الله، جدد بناء مظلة المؤذنين التى تقع فوق زمزم، وأصلحت البرك التى تصدعت فى داخل الحرم[٥].

٦ ـ وفى سنة ٢٥٦هـ فى خلافة المهتدى بالله أمر بتجديد بناء البرك فى داخل الحرم

---

(١) وهى التى تسمى حجرة السقاية، وهى مقر لمن يتولى أمر السقاية والاشراف على بئر زمزم.
انظر: الأزرقى: أخبار مكة، جـ ٢، ص ١٠٧.
(٢) المصدر السابق، جـ ٢، ص ١١٠.
(٣) الفاسى: العقد الثمين، جـ ١، ص ١٦٧.
ـ الجزيرى: درر، ص ٢٢١.
(٤) الأزرقى: أخبار مكة، جـ ٢، ص ١٠١.
(٥) الفاسى: العقد الثمين، جـ ١، ص ١٧٠.

وبناء باب من الحديد على بئر زمزم يغلق ليلا بعد صلاة العشاء، ويفتح مع صلاة الفجر[١].

هذا ولم تذكر لنا المصادر أية اصلاحات أو خدمات لبئر زمزم بعد هذه الفترة الزمنية سوى ما كان يقوم به الخلفاء والأمراء والسلاطين من تقديم الأعطيات لمن يتولى أمر السقاية فى مكة المكرمة.

ب ـ الآبار فى مكة :

بئر العجول: حفر هذه البئر كلاب بن مرة وجعلها لسقاية الناس. وتقع هذه البئر فى دار أم هانى، عند باب الوداع ولهذه البئر أهمية عند سكان مكة فى الجاهلية، لأن العرب حينما كانوا يدخلون مكة كانوا يرتادونها ويتزودون من مائها.

بئر بنر: حفرها قصى بن كلاب، وتقع فى أعلى مكة ثم ردمت من بعده وجدد بناءها جبير بن مطعم بن عدى، ونسبت إليه فيما بعد[٢].

بئر بذر: تقع فى مدخل الخندق[٣] والذى حفر هذه البئر هاشم بن عبدمناف[٤] وجعلها لسقاية الحجاج. غير أن ياقوت يذكر أن الذى حفر هذه البئر عبدالدار. ويقول البلاذرى أن الذى حفرها هو قصى بن كلاب[٥]. ولكن الزبيدى يرجح قول الأزرقى فيمن حفرها، وقد اصطلح أخيرا على تسمية هذه البئر باسم بئر الحمام[٦].

(١) الفاسى: العقد الثمين، جـ ١، ص ١٧٣.
(٢) الأزرقى: أخبار مكة، جـ ٢، ص ٢١٦.
ـ البلاذرى: فتوح البلدان، جـ ١، ص ٥٧.
(٣) الخندق: جبل يقع فى مدخل شعب على بمكة.
(٤) البلاذرى: فتوح البلدان، جـ ١، ص ٥٨.
(٥) البلاذرى: فتوح البلدان، جـ ١، ص ٥٩.
(٦) الأزرقى: أخبار مكة، جـ ٢، ص ٢١٦.
ـ الزبيدى: تاج العروس، مادة بذر.

بئـر سجلة: تقـع هذه البئر بين الصفا والمروة وقد حفرها هاشم ابن عبدمناف وأصبحت من بعـده لابنـه عبـدالمطلب. ولكن عبدالمطلب حينها اهتم بحفر زمزم وأصبح يتولى سقاية الحجاج من بئر زمزم، أعطى بئر سجلة لمطعم بن عدى[1]، ولهذه البئر اسم آخر هو بئر بنى نوفل[2].

بئر طوى: حفرها عبدشمس بن عبدمناف، وتقع فى مدخل مكة وجعلها لسقاية الحجـاج، وسكـان مكـة مما جعـل لهذه البئر أهمية فى العصر الجاهلى وفى العصر الإسلامى وتشتهر بعذوبة مائها[3].

بئر خم ورم: وبعد أن ضعف مصدر المياه فى مكة اهتم عبدشمس بزيادة حفر الآبار فى مكة إذ أنه حفر بئرين سماهما: (خم ورم) وجعلهما لسقاية أهل مكة والحجاج[4].

بئر الحفر: حفرها أمية بن عبدالشمس وتقع بطرف أجياد، وجعلت لسقاية أهل مكة[5].

بئر السنبلة: حفرها خلف بن وهب، وتقع بأسفل مكة بالقرب من دار الزبير بن العوام، وتشتهر بعذوبة مائها[6].

ويذكر ابن هشام ويؤكد هذا القول ابن كثير أن اسم هذه البئر بئر النبى صلى الله

---

(١) الفاسى: شفاء الغرام، جـ ١، ص ٢١٠.

(٢) الأزرقى: أخبار مكة: جـ ٢، ص ٢١٩.

ـ الفاسى: شفاء الغرام، جـ ١، ص ٢١١.

(٣) البلاذرى: فتوح البلدان، جـ ١، ص ٥٧.

وهذه البئر موجودة حتى الوقت وهى ضمن أوقاف السيد فضل عقيل ويقصدها الحجاج من أجل التبرك بها.

(٤) الأزرقى: أخبار مكة، جـ ٢، ص ٢١٩.

(٥) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٢٢٠.

ـ الفاسى: شفاء الغرام، جـ ١، ص ٢١٢.

(٦) البلاذرى: فتوح البلدان، جـ ١، ص ٥٨.

عليه وسلم، وأنها سميت بهذا لأن الرسول صلى الله عليه وسلم، حينما مر بها بصق فيها واصطلح على تسميتها أخيرا ببئر التفلة[1].

بئر السيرة: حفر هذه البئر لؤى بن غالب خارج الحرم[2] ويقول الأزرقى إن الذى حفرها هو مرة بن كعب[3]. والمفيد أن نذكر أن سكان مكة يشربون من هذه البئر بسبب غزارة مائها بعد سقوط الأمطار، ويمكن القول انها كانت بئرا موسمية.

وهذه الآبار حفرت جميعها فى العصر الجاهلى، وحينما تم للرسول صلى الله عليه وسلم فتح مكة اهتم بتوفير المياه فأصلح الرسول صلى الله عليه وسلم، بعض هذه الآبار وجدد البعض الآخر، وقد أمر والى مكة عتاب بن أسيد بأن يشرف على اصلاحها لكى يستقى منها الحجاج فى موسم الحج.

كما اهتم الخلفاء الراشدون بتوفير المياه فى مكة من هذه الآبار.

وفى سنة ٣٨ هـ حفر أبو موسى الأشعرى بئرا فى المعلاة عند نهاية الحجون سميت باسمه[4].

وحينما تولى معاوية بن أبى سفيان الخلافة اهتم بتوفير المياه فى مكة فأمر واليه على مكة بأن يقوم بحفر الآبار فى مكة وأمكنة الحج[5].

كما اهتم سكان مكة بحفر الآبار فى فترة الخلافة الأموية وسنذكر فيما يلى أهم هذه الآبار[6].

---

(١) ابن هشام: السيرة، جـ ٤، ص ٩٥.
- ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٢، ص ١٩٣.

(٢) البلاذرى: فتوح البلدان، جـ ١، ص ٥٩.

(٣) الأزرقى: أخبار مكة، جـ ٢، ص ٢٢٠.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٢، ص ٢٦٣.

(٥) الأزرقى: أخبار مكة جـ ٢، ص ٢٢١.

(٦) البلاذرى: فتوح البلدان، جـ ١، ص ٦٠.
- الفاسى: شفاء الغرام، جـ ١، ص ٦٠.

بئر الشركاء: حفر هذه البئر بنو مخزوم سنة ٦١هـ وتقع فى أجياد حيث كان مقر سكناهم[1].

بئر عكرمة: حفرها عكرمة بن خالد بن العاص بأجياد فى خلافة يزيد بن معاوية وسميت باسمه[2].

وعندما تولى الوليد بن عبدالملك الخلافة اهتم باصلاح الآبار فى مكة.

ففى سنة ٨٩هـ أمر بحفر بئرين: بئر بثنية طوى والبئر الأخرى عند الحجون[3]. كما أمر ببناء أحواض حول المسجد لتوضع فيها المياه لسقاية الحجاج فى فترة الموسم[4].

هذا ولم تتحدث المصادر بعد هذا التاريخ عن أية اصلاحات خاصة فى الآبار فى مكة. ومن الجدير بنا أن نذكر بأن سكان مكة اهتموا باصلاح هذه الآبار وتجديد بنائها لأنها تعد مصدرا رئيسيا لحصولهم على المياه.

جـ ـ العيـــون:

عين شعب الأرين: فى عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان، أمر واليه على مكة سنة ٤٣هـ باجراء عين تستمد ماءها من عين قديمة بشعب الأرين فى أعلى مكة، وقد اتخذ لها بازانات ومد منها قنوات من أجل ايصال مياهها الى المساكن المجاورة للحرم لكى لا يجد الحجاج وسكان مكة صعوبة فى حصولهم على الماء[5].

ومن الجدير أن نذكر أن ما قام به الخليفة معاوية بن أبى سفيان من مد هذه العين لكى يستفيد بها كل من يفد إلى مكة يعد أول عمل من نوعه لامداد المساكن المجاورة

---

(١) الفاكهى: المنتقى، ص ٥١.
- الأزرقى: اخبار مكة، جـ ٢، ص ٢٢٤.

(٢) الفاسى: شفاء الغرام، جـ ٢، ص ١٦٨.

(٣) النهروالى: الاعلام، ص ٩٥.
- الفاكهى: المنتقى، ص ٥٨.

(٤) الفاسى: شفاء الغرام، جـ ٢، ص ١٧٠.

(٥) الأزرقى: أخبار مكة، جـ ١، ص ٢٢٥.

للحرم بالمياه، كما يعد هذا العمل أهم ما قام به معاوية من خدمات فى مكة المكرمة.

عين الرشا: وبعد أن تعطلت عين الأرين فى عهد هارون الرشيد أمر الخليفة واليه على مكة باجراء عين الرشا التى تقع فى أعلى مكة فى داخل شعب الخرمانية، كما أمر بإيصال قنوات من هذه العين إلى القنوات التى عملها معاوية بن أبى سفيان لاجراء عين الأرين التى جدد الرشيد قنواتها وأوصلها الى البركة التى قام بعملها قرب المسجد الحرام، وقد استفاد سكان مكة والحجاج معا من هذه العين[1].

ومن الملاحظ أن الخليفة هارون الرشيد قد دفع أموالا لأصحاب عين الرشا من أجل أن يستفيد من هذه العين لسقاية أهل مكة والحجاج. إذ يعتبر هذا العمل من أهم الأعمال التى قام بها الرشيد فى فترة خلافته.

عين حنين: وفى سنة ١٩٣هـ تعطلت عين الرشا وتعرضت الآبار المحيطة بمكة لموسم الجفاف مما أدى إلى نضوبها فاستغل أهل مكة هذا الجفاف وبدأوا يحضرون المياه من خارج مكة ويبيعونها للحجاج حتى بيعت الراوية بعشرة دراهم[2].

وفى هذا العام حجت السيدة زبيدة ورأت ما يقاسيه الحجاج من أجل الحصول على الماء، فأمرت والى مكة بدراسة مصادر المياه وكيفية وصول الماء إلى مكة لكى لا يجد كل من يفد إلى بيت الله الحرام صعوبة فى الحصول على الماء. ومن المعلوم أن هذه الدراسة التى قام بعملها والى مكة أثبتت أنه لا يمكن دخول ماء الحل إلى الحرم، وذلك بسبب الصعوبة الجغرافية لمكة، وبالذات للمنطقة المحيطة بالحرم، ومن ثم كان الحل هو زيادة حفر آبار فى داخل الحرم، ولكن السيدة زبيدة لم تقبل هذه الدراسة، فأرسلت من بغداد المهندسين والصناع وأمرتهم بضرورة التوصل إلى حل

---

(١) الأزرقي: أخبار مكة، جـ٢، ص٢٢٦.
- الفاسى: شفاء الغرام، جـ٢، ص ١٧٠.
- الفاكهى: المنتقى، ص ٦٠.

(٢) الأزرقى: أخبار مكة، جـ٢، ص ٢٢٠.
- الفاكهى: المنتقى، ص٦٦.

من أجل حصول سكان مكة على الماء. ولقد أثبتت هذه الدراسة أن هناك عيونا خارج الحرم، وهى عين حنين وعين وادى النعمان، وأنه يمكن الاستفادة منها فى سقى أهل مكة وأمكنة المشاعر(١).

وسوف نورد الحديث عن عين حنين. أما عين وادى النعمان فسوف نتكلم عنها فى حديثنا عن مشاعر الحج.

تنبع عين حنين من جبل شاهق فى الطريق من مكة الى الطائف، ويسمى هذا الجبل (طاد)(٢)، وتحيط به جبال تسمى جبال الثغبة(٣). وهذه العين كانت تستقى منها مزارع الأعراب الذين يسكنون فى هذه المناطق(٤). وتسمى هذه المنطقة بسهل حنين، ويقال لها حائط حنين.

ولقد اشترت السيدة زبيدة هذه الأراضى ومهدتها وأمرت ببناء قناة يجرى فيها الماء وشقت لها الجبال وبنت لها بركا مختلفة على قمم تلك الجبال لاستقبال مياه الأمطار وايصالها بالقناة الرئيسية لمجرى العين من أجل مساعدتها. واستمر مجرى القناة حتى وصل مكة فكثرت المياه فيها ولم يعد الناس يشكون من نقص الماء(٥). ثم بنت السيدة زبيدة البرك المختلفة على امتداد مجرى القناة حتى وصلت المياه إلى الحرم بالإضافة الى وضع البازانات فى كل حى من أحياء مكة من أعلى مكة حتى الحرم(٦).

ولقد أنفقت السيدة زبيدة فى هذا العمل أموالا طائلة، كما أنها أوصلت بعض

---

(١) المسعودى: مرج الذهب، جـ ٤، ص ٤٢٢.

(٢) انظر ياقوت: معجم، جـ ٢، ص ١٥٣.

(٣) المصدر السابق: جـ ٢، ص ٤٨.

(٤) الأزرقى: أخبار مكة، جـ ٢، ص ٢٢٦.

(٥) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٢٢٧.

ـ الفاكهى: المنتقى، ص ٦٨.

ـ محمد رفعت، مرآة الحرمين، جـ ١، ص ٢١٠.

(٦) الفاسى: شفاء الغرام، جـ ١، ص ١٥١.

ـ المسعودى: مروج الذهب، جـ ٤، ص ٤٢٣.

الآبار القديمة التى تقع فى طريق مجرى القناة الرئيسية. ويقال أنها اشترت عيونا كثيرة مثل عين ميمونة وعين الصرفة وعين ثقبة وعين الحريبات وأوصلتها بعين حنين وأمرت بعمل البرك حول الحرم من أجل سقاية الحجاج[1].

ويقول الفاكهى فى كتابه المنتقى: إنه فى سنة ٢١٠هـ أبلغ والى مكة صالح بن العباس الخليفة المأمون أن أهل السوق والسفلة وأجياد لم تصلهم مياه العين، فأمره الخليفة بعمل بازانات لهذه المناطق التى لم يصلها مجرى العين وأن تغذى هذه البازانات من القناة الرئيسية للعين، فعمل بركة عند الصفا وبركة عند سوق الخياطين ومدت بقناة الى أسفل مكة. ولما فرغ منها أجرى فيها الماء من العين التى أمرت ببنائها السيدة زبيدة[2].

ولما علمت السيدة زبيدة بما فعله صالح بن العباس لامته على ما قام به وقالت له: (انما قمت به من عمل ما أريد الا أن أكمله)، فاعتذر لها صالح قائلا: انما قمت به من عمل ما هو الا اكمال لعملك الخيرى[3].

ومن الجدير بنا أن نذكر فى هذا المقام أن توفير المياه فى مكة يعد من أهم الخدمات التى تقدم لهذه المدينة التى تفتقر إلى وجود الماء بها. ولكى تقدر ما قامت به السيدة زبيدة فى هذا الصدد، يكفى أن نذكر أن الدراسات الحديثة الخاصة بالبحث عن المياه فى مكة لم تتمكن من التوصل الى نقطة ماء يمكن أن تستخرج من أية منطقة فى مكة وأن تضيف مصدرا للمياه الى المصادر التى اعتمد عليها مشروع السيدة زبيدة، الذى لايزال باقيا حتى اليوم ينعم به سكان مكة وحجاج بيت الله الحرام.

---

(١) الفاسى: شفاء الغرام، جـ ١، ص ١٩٧.
- محمد رفعت: مرآة الحرمين، ص ٢١١.
- محمد أنور شكرى: لوحات أثرية، ص ٤٣.

(٢) الفاكهى: المنتقى، ص ٧١.

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ ٧، ص ١٧٨.
- وابن الفلاح الحنبلى: شذرات الذهب، جـ ٢، ص ١٨٢.
- الزركلى: الأعلام، جـ ٣، ص ٧٨.

ولقد استمر جريان مياه العين ولم تتعطل منذ انشائها حتى سنة ٢٥١هـ في خلافة المعتز بن المتوكل العباسي، إذ أخبره والى مكة بما حدث لهذه العين فى مجراها من خراب فأرسل له الخليفة أموالا لاصلاحها غير أن الإصلاح لم يتم فى هذه السنة بسبب ما حدث من اعتداء على والى مكة من قبل الأشراف الحسنيين ونهب ما أرسله الخليفة من أموال لاصلاح العين(١). وفى سنة ٢٥٣هـ أرسل الخليفة المعتز الى والى مكة الأموال لإصلاح العين وما خرب فيها(٢).

وفى سنة ٢٦٩هـ وقعت الفتنة بين رجال أحمد بن طولون ورجال الخليفة المعتمد وولى عهده أبوأحمد الموفق وهزم فيها رجال أحمد بن طولون، وفى هذه السنة منع الحجاج المصريون من شرب الماء ويقال أنهم لم يشربوا الماء الا من بستان ابن عامر، ولما تم الصلح بينهم وبين رجال الموفق سمح لهم بشرب الماء(٣).

ونستدل من هذه الحادثة على أن منع الحجاج من شرب الماء فى هذه المدينة التى لا يتوفر فيها الماء يعد من أكبر ما ينزل بالحجاج. فقد استغل والى مكة الخلاف السياسى بين الطرفين ومنع الحجاج المصريين من الشرب من ماء العين.

وفى سنة ٢٧٠هـ أمر الخليفة المعتمد بإصلاح بعض البازانات فى مكة وأرسل الأموال إلى والى مكة لإصلاح بعض القنوات التى أهملت وملئت بالأتربة، كما أمر بتعيين رجال لحراسة قناة ماء عين حنين وتنظيفها من الأتربة التى رسبتها المياه فى جريانها فى هذه القناة(٤).

---

(١) الأزرقى: أخبار مكة، جـ٢، ص ٢٢٨.
- ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص ٩٢.

(٢) الفاسى: شفاء الغرام، جـ٢، ص ١٩٧.

(٣) الفاسى: شفاء الغرام، جـ٢، ص ١٩٧.
- محمد أنور شكرى، لوحات أثريات، ص ٤٤.

(٤) الصباغ: تحصيل المرام، ورقة ٢٣٢أ
- الأزرقى: أخبار مكة، جـ٢، ص ٢٣١.
- محمد رفعت: مرآة الحرمين، جـ١، ص ٢١١.

ويقول الفاكهي في كتابه المنتقى إن عدد الحراس كان ثلاثمائة رجل منهم من يحرس القناة ليلا ومنهم من يحرسها نهارا. وقد تم توزيع هؤلاء الحراس على البازانات لحراستها وتوزيع الماء على سكان الأحياء، ولإخبار الوالي عما يحدث بها من نقص لكي يتم اصلاحه في حينه[1].

وفي سنة ٥٠٠هـ في عهد الخليفة الناصر لدين الله غارت عيون مكة فأمر الخليفة بتعمير عين حنين وحفر الآبار اللازمة لها، ولقد مدت عيون مختلفة من منطقة حنين لتزداد بها مياه عين حنين، كما زيد من عدد البازانات في أحياء مكة لسد حاجات الحجاج[2].

وبعد هذا التاريخ لم تذكر لنا المصادر أية اصلاحات جرت لعين حنين في الفترة الزمنية التي تخص هذا البحث.

السيول وآثارها في مكة :

تعتمد مكة على مياه الآبار، وتوفير هذه المياه في هذه الآبار يتوقف على نزول مياه الأمطار والسيول. وطبيعة أودية مكة وسطوحها تساعد على جريان المياه من أعلى إلى أسفل وتجمعها في الآبار، ونحن نجد صعوبة في معرفة عدد السيول التي تعرضت لها مكة المكرمة خلال الحقبة الزمنية التي يدور فيها هذا البحث (٨هـ : ٦٥٦هـ)، وسنورد فيما يلي أهم السيول التي ذكرها المؤرخون خلال هذه الحقبة الزمنية.

سيل أم نهشل :

حدث هذا السيل أثناء خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان

(١) الفاكهي: المنتقى، ص ٧٤.
- محمد ابراهيم رفعت، مرآة الحرمين، جـ ١، ص ٢١٢.

(٢) الأزرقي: أخبار مكة، جـ ٢، ص ٢٣٢.
- محمد ابراهيم رفعت: مرآة الحرمين، جـ ١، ص ٢١٣.

لهذا السيل أثر كبير حيث أنه امتد إلى الحرم واقتلع مقام ابراهيم عليه السلام، وهدم بعض الدور وملأ آبار مكة بالمياه[1].

وأمر الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعمل ردم فى أعلى مكة، وقد بنى هذا الردم بصخور عظام لكى تحيط بالحرم لمنع السيل من دخوله[2].

كما أمر والى مكة بإعادة بناء الدور التى خربها السيل. وقام الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه بإعادة مقام ابراهيم الى مكانه مستعينا بأحد سكان مكة للاستدلال على مكان المقام[3].

ومنذ هذه السنة لم يتعرض المسجد الحرام لسيل حتى سنة ٨٠هـ بالرغم من سقوط الأمطار الغزيرة فى بعض السنوات.

سيل الجحاف :

وفى خلافة عبدالملك بن مروان داهم الحجاج فى يوم التروية سنة ٨٠هـ سيل عظيم دمر أمتعتهم ودخل المسجد الحرام، وأحاط بالكعبة وهدم بعض الدور التى تقع بالمعلاة، وقتل أناسا كثيرون حتى أنه لم ينج منهم إلا من صعد الجبال واعتصم بها. وحينما علم عبدالملك بن مروان بذلك كتب إلى عامله فى مكة يأمره بإعادة بناء الدور التى هدمت، وبناء ردم يحيط بالمسجد الحرام سمى بردم (الخزامية)[4].

سيل المخبل :

حدث هذا السيل سنة ٨٤هـ ، وقد أصاب الناس بسببه مرض فى أجسادهم وألسنتهم ودخل المسجد الحرام وأحاط بالكعبة[5].

---

(١) الأزرقى : أخبار مكة، جـ ٢، ص ١٣٤.

(٢) الأزرقى : أخبار مكة، جـ ٢، ص ١٣٥.

ـ الفاسى : شفاء الغرام، جـ ٢، ص ٢٦١.

(٣) المصدر السابق : جـ ٢، ص ٢٦٣.

(٤) الأزرقى : أخبار مكة، جـ ٢، ص ١٣٦.

ـ الفاسى : شفاء الغرام، جـ ٢، ص ٢٦٣.

(٥) الأزرقى : أخبار مكة، جـ ٢، ص ١٣٨.

سيل أبى شاكر :

حدث عقب فراغ الناس من الحج سنة ١١٩هـ[١] .

وفى سنة ١٦٠هـ هطلت أمطار غزيرة على مكة سالت على أثرها أودية مكة وشعابها. ويقول الفاكهى : إن هذا السيل دخل المسجد الحرام وأحاط بالكعبة، وهدم بعض الدور، وملأ المسجد الحرام بالأتربة، فأرسل الخليفة العباسى أموالا الى والى مكة لإصلاح ما أفسدته السيول، وإصلاح ردم عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وإصلاح ردم الخزامية[٢].

وفى سنة ١٨٤هـ أثناء خلافة هارون الرشيد هطلت أمطار غزيرة على مكة سالت على أثرها الأودية والشعاب ودخلت السيول فى المسجد الحرام، وتصدع ردم عمر وردم الخزامية بسبب عدم إصلاحه، وغرق أناس كثيرون[٣]. ويذكر الفاكهى فى كتابه المنتقى : إن الخليفة هارون الرشيد أمر باصلاح ردم الخزامية وإعادة بناء الدور التى هدمها السيل[٤].

سيل ابن حنظلة :

وفى سنة ٢٠٢ هـ فى خلافة المأمون، حدث هذا السيل الذى امتد أثره الى المسجد الحرام، وأحاط بالكعبة وبلغ ارتفاعه حتى الحجر الأسود وهدم دورا كثيرة، وذهب بأناس كثيرين ونتج عنه مرض شديد أدى الى موت بعض الناس. وعلى أثر ذلك أمر الخليفة ببناء «سد الثقبة» فى منطقة تقع بين جبل حراء وجبل الثنية، وأصبح يجدد دائما[٥].

---

(١) الفاسى : شفاء الغرام : جـ٢، ص٢٦٣.
(٢) الفاكهى : المنتقى، ص١١٣.
(٣) الأزرقى : أخبار مكة، جـ٢، ص ١٣٩.
ـ الفاسى : شفاء الغرام، جـ٢، ص ٢٦٣.
(٤) الفاكهى : المنتقى، ص ١١٤.
(٥) الفاسى : شفاء الغرام، جـ٢، ص ٢٦٤.

وفى سنة ٢٠٨هـ هطلت أمطار غزيرة على مكة وارتفع الماء خلف السد، مما أدى إلى انفجاره، فخرج سيل عظيم والتحم مع بعض السيول التى خرجت من شعاب مكة متجهة الى المسجد الحرام وأحاط بالكعبة وارتفع عن الحجر الأسود، وهدم بيوتا كثيرة. ويقول الفاكهى أن الناس مكثوا فى بيوتهم يومين(١)، واضطر والى مكة إلى الاستعانة بسكانها لتنظيف المسجد الحرام من الطين والتراب الذى أحدثه السيل(٢). فسارعوا إلى الاشتراك فى حمل التراب لتنظيف المسجد الحرام(٣). ولما بلغ خبر هذا السيل الى الخليفة المأمون أرسل أموالا الى والى مكة، لإصلاح السد، وإعادة بناء الدور التى خربها السيل(٤).

وفى سنة ٢٩٧هـ حدث سيل وصلت مياهه داخل الحرم وغرق فيه أناس كثيرون، وأرسلت الأموال من الخليفة العباسى لإصلاح الخراب الذى أحدثه السيل فى أركان البيت الحرام(٥).

وفى سنة ٣٤٩هـ بسط الحجاج أمتعتهم استعدادا للرحيل بعد قضاء موسم الحج فى وادى خارج مكة، فإذا بسيل يداهمهم ويقضى على حجاج الركب الشامى، أما بقية الحجاج فقد فروا واعتصموا بالجبال(٦).

وفى سنة ٤١٧هـ هطل السيل ودخل الحرم ووصل إلى الحجر الأسود وأغرق دار إمارة مكة. فكان أول سيل يرتفع منسوبه إلى داخل دار الأمارة وقد استعان أمير مكة بالسكان لإصلاح ما خربه السيل(٧).

---

(١) الصباغ: تحصيل المرام، ورقة ٢٤٣أ.

(٢) السباعى: تاريخ مكة، جـ١، ص ٦٣.

(٣) الفاسى: شفاء الغرام، جـ٢، ص ٢٦٤.

(٤) ابن الأثير: الكامل، جـ٦، ص ٣٨٧.

(٥) الأزرقى: أخبار مكة، جـ٢، ص١٤٠.
- الفاسى: شفاء الغرام، جـ٢، ص ٢٦٤.

(٦) الأزرقى: أخبار مكة، جـ٢، ص ١٤١.

(٧) المصدر السابق: جـ٢، ص ١٤٢.

وفي سنة ٥٢٨هـ هطلت أمطار غزيرة استمر هطولها سبعة أيام متواصلة أدت الى تصدع (سد الثقبة) وانفجاره فخرجت مياه السد ودمرت دورا كثيرة ودخلت المسجد الحرام[١].

وفي عام ٥٦٩هـ ارتفع منسوب الماء عن السد، فتصدع وأغرقت مياهه الحرم ودمرت الدور المحيطة بالحرم[٢].

وفي عام ٥٩٣هـ حدث سيل ودخل المسجد الحرام وارتفع منسوب الماء إلى ما فوق الحجر الأسود وغرق المنبر[٣]. ويقول الفاكهي: أن الماء وصل منسوبه الى قناديل الحرم، وأن الناس طافوا سباحة حول الكعبة[٤].

وفي عام ٦٢٠هـ جاء سيل عظيم، ودخل المسجد الحرام وهلك فيه عدد كبير من الناس[٥].

وفي عام ٦٥١هـ حدث سيل آخر يعد من أضخم السيول التي تعرضت لها مكة المكرمة، خلال تلك الحقبة الزمنية، مما جعل أمير مكة يهتم باعادة بناء السد ورفعه أكثر مما كان. ولقد استعان ببعض المهندسين من مصر لتخطيط بناء هذا السد وزيادة ارتفاعه ليكون أكثر فعالية في مقاومة مياه الأمطار الغزيرة[٦].

ومما سبق يتضح لنا أن هذه السيول كانت تحدث الخراب في داخل المدينة، ومرجع ذلك إلى إهمال أمراء مكة، وعدم اهتمامهم بإصلاح السد الذي بني في عهد الخليفة المأمون، وكذلك عدم اهتمامهم بالقيام بأية مشروعات يستفاد، منها في حماية مكة من السيول الجارفة.

---

(١) الأزرقي: أخبار مكة: جـ ٢، ص ١٤٢.
(٢) الأزرقي: أخبار مكة، جـ ٢، ص ١٤٣.
(٣) الفاسي: شفاء الغرام، جـ ٣، ص ٢٦٤.
(٤) الفاكهي: المنتقى، ص ١١٩.
(٥) المصدر السابق: ص ١٢٢.
(٦) الأزرقي: أخبار مكة، جـ ٢، ص ١٤٤.

٣ ـ توفير الطعام للحجاج فى مكة المكرمة :

نظرا لوقوع مكة فى واد غير ذى زرع ، فقد عمل أهلها منذ العصر الجاهلى بالتجارة من أجل توفير الطعام للحجاج ولسكان مكة المكرمة ، فحملوا القمح والدقيق والزيت من الشام ، والبلح والوبر والجلود والسمن والبخور من اليمن والقرى المجاورة لها ، وقاموا بتبادل تجارى كبير مع الفرس والروم(١) كما عقدت حول مكة الأسواق المختلفة لتوفير الطعام للحجاج الوافدين اليها(٢) .

وبعد أن أصبحت مكة تابعة للدولة الإسلامية ، استمر القرشيون فى الحفاظ على تجارتهم التى أصبحت لها أهمية كبرى فى حياتهم وحياة سكان مكة . فقد ارتبطت مصالحهم بتوفير الأطعمة المختلفة وجلبها إلى مكة عن طريق تجارة القوافل(٣) .

ولقد اهتم بعض سكان مكة بتوفير الأطعمة للحجاج فى الأسواق التى انتشرت حول المسجد الحرام فى مكة بعد أن كانت فى العصر الجاهلى فى عكاظ ومجنة وذو المجاز خارج حدود مكة(٤) .

وقد اهتم عثمان بن عفان رضى الله عنه ، بتجارة أهل مكة من أجل توفير الأطعمة للحجاج بعد أن أصبحت الشام والعراق ومصر تابعة للدولة الإسلامية . ففى عهده أصبحت الشعيبة ميناء بحريا لمكة ، وأخذت السفن تجلب اليها البضائع والسلع من مصر واليمن وغيرها من البلدان المطلة على البحر الأحمر(٥) .

وبعد أن اتسعت رقعة الدولة الإسلامية فى عهد بنى أمية وامتدت من شرقى آسيا

(١) جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، جـ ٢ ، ص ٣٩٦ .
(٢) ابن هشام : السيرة ، جـ ١ ، ص ٣٦ .
(٣) الطبرى : تاريخ الأمم ، جـ ٣ ، ص ٧٨ .
(٤) جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، جـ ٥ ، ص ٦١٤ .
(٥) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ، جـ ١ ، ص ١٩ .
ـ احمد السباعى : تاريخ مكة ، جـ ١ ، ص ٧٣ .
ـ أحمد الشريف : مكة والمدينة ، ص ١٦٢ .

إلى شمالي افريقيا أصبحت مكة سوقا تجارية كبرى وبخاصة فى موسم الحج ، وذلك أن معظم الحجاج كانوا يفدون اليها لأداء فريضة الحج ولمبادلة ما يحملونه معهم من سلع ومتاجر[1] .

ومن الجدير أن نشير إلى أن سكان مكة المكرمة اهتموا بالزراعة والرعى فى المناطق ذات التربة الخصبة والمياه الوفيرة . وفى مقدمة هذه المناطق الأودية المجاورة لمكة ومنطقة الطائف[2]، وقد أمدتها هذه المناطق بالمواد الغذائية مثل القمح والشعير والتمور والفواكه، وكذلك بما تحتاجه من الماشية أثناء موسم الحج[3] .

وفى سنة ٨٢هـ انتشرت الأسواق فى مكة وكان مقرها حول المسجد الحرام . فكان لكل فئة سوق خاص بها مثل سوق التمارين، وسوق الجزارين وسوق الحطب، وكانت هذه الأسواق قريبة من الدور التى يسكن فيها الحجاج وبها جميع ما يحتاجون اليه من الأطعمة[4] .

هذا ولم تذكر المصادر شيئا عما قام به الخلفاء من توفير الطعام فى مكة المكرمة الا وقت تعرضها للأزمات الاقتصادية بخاصة فى موسم الحج .

ومن المعلوم أن سقوط الأمطار له أهمية كبرى فى الزراعة بمنطقة الأودية التى تمد مكة بالمحاصيل الزراعية، فهذه الأودية تعتمد اعتمادا كليا على مياه الأمطار فى زراعتها فاذا حدث وانقطع نزول المطر، أدى هذا إلى الجفاف، وبالتالى الى نقص فى الانتاج [5] .

---

(١) النهروالى : الاعلام، ص ١٢٣ .
- أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ٧٨ .
(٢) الأزرقى : أخبار مكة، جـ ١ ، ص ٧٨ .
(٣) البتنونى : الرحلة الحجازية، ص ٣٥ .
(٤) ابن فهد : اتحاف الورى، جـ ٢ ، ورقة ١٩٧أ .
- ابن العماد، شذرات الذهب، جـ ٥ ، ص ٢٧٣ .
(٥) الفاسى : شفاء الغرام، جـ ٢ ، ص ٢٥٣ .

ولم يكن عدم نزول الأمطار وحده هو السبب فى وجود أزمة اقتصادية بل كان هناك أسباب أخرى، منها الفتن الداخلية وسوء علاقة الأعراب سكان الطرق بالتجار الذين يأتون الى مكة مع ركب الحجاج[1].

وإذا حاولنا استعراض الأزمات الاقتصادية التى تعرضت لها مكة خلال هذه الحقبة الزمنية نجدها حدثت فى فترات زمنية متقطعة ومتباعدة.

ففى سنة **٧٣هـ** حدثت الحرب مع عبدالله بن الزبير التى أدت الى ارتفاع الأسعار فى أسواق مكة وأصاب الناس بسبب ذلك جوع شديد[2]. يقول الفاكهى فى كتابه المنتقى: إن سعر الدجاجة بلغ عشرة دراهم وأن الذرة اختفت من الأسواق[3].

وفى سنة **٢٥١هـ** قطع بنو عقيل الطرق المؤدية الى مكة وكانت بينهم وبين أهل مكة حرب أدت الى ارتفاع شديد فى الأسعار، ولقى أهل مكة كل بلاء بسبب هذه الحرب، فبلغ رطل اللحم أربعة دراهم ورغيف الخبز درهمين[4].

وفى سنة ٢٦٠هـ عم الغلاء جميع بلاد المسلمين مما كان له أثر بالغ على سكان مكة لأنه ساعد على ارتفاع الأسعار. وسبب هذا الغلاء الفتنة التى حدثت فى الموصل فى خلافة المعتمد وامتناع أهل السواد، عن دفع الخراج الى الدولة، وكذلك الفتنة التى حدثت فى أذربيجان وبلاد المغرب[5].

وفى سنة ٢٦٨هـ غلت الأسعار بمكة، والسبب فى ذلك يعود إلى حادث

---

(١) ابن فهد: اتحاف الورى، جـ٣، ورقة ٢١٠.
- القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٢٠١.
- النويرى: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ٧٠.

(٢) الفاسى: شفاء الغرام، جـ٢، ص ٢٥٩.

(٣) الفاكهى: المنتقى، ص ١٣٨.

(٤) الجزيرى: درر الفوائد، ص ٢٣٠.
- الفاسى: شفاء الغرام، جـ٢، ص ٢٦٠.

(٥) ابن الأثير: الكامل، جـ٧، ص ٢٧٣.

المخزومى[1]. فقد اعتدى المخزومى على قوافل الحجاج ونهب قوافلهم خارج مكة، حتى أنه أحرق بعض بيوت الأعراب التى تسكن وادى نخلة، وبسبب ذلك ارتفع سعر الخبز حتى أصبح ما مقداره أوقيتان بدرهم، ولم يتم القضاء على هذه الحركة الا بعد موسم الحج. إذ استطاع ابن أبى الساج القضاء عليه لأنه كان يتولى امارة البريد فى الطرق[2].

وفى سنة ٤٤٠هـ أدت الخلافات والصراعات التى نشأت بين أفراد البيت البويهى الذى أسفر عن تفتت هذه الأسرة فعم الغلاء بعض أمصار الدولة الإسلامية[3].

وفى أواخر سنة ٤٥٠هـ استنجد الخليفة العباسى بطغرلبيك السلجوقى ليساعده فى طرد البساسيرى الذى دخل بغداد فى السنة السابقة وأعلن الخطبة للخليفة الفاطمى المستنصر بالله واستطاع طغرلبيك دخول بغداد.

وهرب البساسيرى وبدأ عصر السلاجقة، كما عادت بغداد إلى الخلافة العباسية، وقد أدت هذه الخلافات إلى غلاء الأسعار فى كل من بغداد والشام ومصر، وعم هذا الغلاء حتى وصل إلى مكة. ويقال أنه تعذر وجود الخبز فى مكة[4].

وفى العام التالى انخفض منسوب النيل، فلم ترسل مصر الغلات المعتادة التى كانت ترسلها الى الحجاز مما ساعد على ارتفاع الأسعار[5]، كما ساهم فى هذا الغلاء، وفى ارتفاع الأسعار فى مكة حدوث الفتنة الصليحية باليمن، فلم ترسل اليمن غلاتها[5].

وفى سنة ٥٦٧هـ اعتدى الصليبيون على بعض مدن الشام، ولم تصل إلى مكة فى

---

(١) المخزومى : هو ابو المغيرة المخزومى ترأس حركة الخوارج سنة ٢٦٨هـ
أنظر الشهرستانى : الملل والنحل، جـ ٢، ص ١٠٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ ٧، ص ٣٧٢.

(٣) المصدر السابق : جـ ٩، ص ٦١٤.

(٤) المصدر السابق : جـ ١٠، ص ٤٣.

(٥) الجزيرى: درر الفوائد، ص ٢٣٨.

هذه السنة المؤونة الكاملة من الغلال بسبب احداث الشام فبلغ المد[1] من الحب دينارا، ولم تنته هذه الأزمة إلا فى شهر شوال، حينما وصلت الصدقات التى أرسلها صلاح الدين من مصر الى مكة فأحيت المسلمين وفرجت عنهم[2].

وفى سنة ٥٦٩هـ ارتفعت الأسعار فى مكة حتى أن صاع[3] الحب بلغ دينارا، ومات عدد كبير من الناس والمجاورين بمكة بسبب عدم وجود الطعام. وحينما علم الخليفة المستضىء بأمر الله العباسى أمر بارسال الصدقات لأهل مكة والمجاورين فانخفضت الأسعار بعد وصول هذه الإمدادات[4].

وفى سنة ٦٠٠هـ حدث بمكة غلاء شديد كان سببه أن مصر لم ترسل إلى الحجاز الغلال التى كانت ترسلها، ويرجع السبب فى ذلك إلى تعرض مصر لموسم الجفاف وانشغال المصريين ببعض الفتن حتى أن الغلاء عم مصر نفسها[5].

توفير السكن للحجاج فى مكة المكرمة :

أ ـ سكن الحجاج فى دور أهل مكة :

من المعلوم أن سكان مكة كانوا يهتمون باسكان الحجاج منذ زمن قصى بن كلاب، وأن هذه العادة استمرت فى أبناء قصى بعد موته، وكان لكل بطن من بطون قريش ربع[6] خاص بها مثل رباع بنى مخزوم وحلفائهم ورباع بنى تميم وحلفائهم.

(١) المد: يساوى ٢٨ كيلة، مفكرة مكة المكرمة، ١٣٩٧هـ .
ـ الزبيدى: تاج العروس، مادة مد.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ ١١، ص ٣٧٥.

(٣) الصاع : يساوى القدح، مفكرة مكة المكرمة، ١٣٩٧هـ .
ـ الزبيدى: تاج العروس، مادة صاع.

(٤) ابن الأثير: الكامل، جـ ١١، ص ٣٨٠.

(٥) الفاسى : شفاء الغرام، جـ ٢، ص ٢٦٠ .
ـ أبوالمحاسن: النجوم، جـ ٦، ص ١٢١ .

(٦) الرباع مشتق من الربع وهو المكان المعد لسكن القبيلة.
ـ انظر الأزرقى : أخبار مكة، جـ ١، ص ١٨ .

وكانت مكة موزعة حسب سكانها القرشيين إلى مناطق، فكان رباع بنى عبدالمطلب بن هاشم فى منطقة الشعب، ورباع بنى عبدالمناة بفوهة شعب بنى عامر، ويقال أن بنى بكر سكنوا هذا الشعب، ورباع بنى عبدشمس فى المدعاة، وفيها دار أبى سفيان، ورباعى ابن أبى العيص قرب شعب بنى عامر بالمعلا(١).

وكان لكل أسرة قرشية أن تسكن من يفد اليها من القبائل العربية بلا عطاء فى رباعها الخاص بها. أما القبائل العربية التى كانت تفد الى مكة فى فترة موسم الحج، ولم يكن لها حلفاء، من أهل مكة أو القبائل التى استوطنت مكة فإنهم كانوا يسكنون فى مضارب الخيام التى يقومون بعملها فى أعلى مكة فى منطقة الأبطح (٢).

وبعد أن تم للرسول صلى الله عليه وسلم، فتح مكة أصبح يفد إلى مكة حجاج من جميع أنحاء الجزيرة العربية ويستقبلهم أهل مكة، بعد أن زادت مساحتها العمرانية فى دورهم(٣). ونتيجة للفتوحات التى تمت فى العصر الأموى، توسعت رقعة الدولة الإسلامية وأصبح يفد إلى مكة حجاج كثيرون من جميع أمصار الدولة الإسلامية، وكان هؤلاء الحجاج يسكنون فى بيوت أهل مكة بلا مقابل(٤).

ولما آلت الخلافة إلى البيت العباسى حرم خلفاؤها على أهل مكة ايجار بيوتهم للحجاج لأن أبا حنيفة رضى الله عنه كان يجد كراهية فى إيجار بيوت مكة للحجاج مستندا فى رأيه إلى الحديث الشريف: (عن عبدالله بن زياد عن أبى نجيح عن عبدالله بن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: من أكل من أجور بيوت مكة شيئا فكأنما أكل نارا(٥).

وروى أيضا عن أبى حنيفة رضى الله عنه، أنه كره إيجار البيوت للحجاج لأن لهم

---

(١) جواد على: المفصل فى تاريخ العرب، جـ ٤، ص ٤٠٥.

(٢) الأزرقى: أخبار مكة، جـ ١، ص ١٦٨.

(٣) المصدر السابق، جـ ١، ص ٧٠.

(٤) الأزرقى: أخبار مكة، جـ ١، ص ١٧٦.

ـ محب الدين الطبرى: القرى لقاصد أم القرى، ص ٩٨.

(٥) محمد أبو زهرة: أبو حنيفة، ص ٧٣.

ضرورة فى النزول والاقامة مستندا على قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه، لأهل مكة (لا تتخذوا لدوركم أبوابا لينزل البادى حيث شاء). ويحذرهم من أن يغلقوا بابا دون الحجاج، لأن الحاج حينما يقصد مكة له أن ينزل فى أى بيت يراه خاليا[1].

ويؤكد هذا القول الخليفة الأموى عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه، حينما كتب الى عاملة فى مكة، عبدالعزيز بن عبدالله بن خالد بن أسيد يأمره بأن لا يدع أهل مكة يأخذون على بيوتهم أجرا من الحجاج وألا تغلق أبوابها، مستندا على أن مكة لم تفتح عنوة، وأن النبى صلى الله عليه وسلم، أقرها على ألا تباع ولا تؤجر، ولذلك اعتاد سكان مكة ألا يضعوا على مداخل مساكنهم أبوابا، وأن يستقبلوا الحجاج فى دورهم من غير أجر الى أن قامت حادثة القرامطة[2].

وعندما ضعفت الخلافة العباسية، قلت الأعطيات التى ترسل من قبل الخلافة الى سكـان مكة، بدأ أهل مكة يطلبون أجرا عن سكن الحجاج فى دورهم، مما جعل بعض التجـار والعلماء والأمـراء والـوزراء والسلاطين يقومون ببناء أربطة لاسكان الحجاج الفقراء.

ب ـ الأربطة ودورها فى اسكان الحجاج :

لقد نشط بناء الأربطة فى مكة المكرمة منذ سنة ٤٠٠هـ، فلم تذكر المصادر أن الأربطة أقيمت في مكة قبل هذا التاريخ لاستقبال الحجاج للاقامة فيها أثناء موسم الحج. وأقدم هذه الأربطة التى تذكرها المصادر هى :

ربـاط السدرة :

كان هذا الـرباط يقع عند باب بنى شيبة[3] ويذكر الفاسى أنه تم بناؤه فى سنة ٤٠٠هـ، ولم يذكر شرط وقفيته ولا من الذى أوقفه[4].

(١) البلاذرى : فتوح البلدان، جـ١، ص ٥٠.
(٢) الفاسى : العقد الثمين، جـ١، ص ١٣٢.
(٣) الأزرقى : أخبار مكة، جـ١، ص ١١٦.
(٤) الفاسى : شفاء الغرام، جـ١، ص ١٠٨.

رباط دار الخيزران :

ودار الخيزران كانت تقع قرب الصفا، وأصبحت رباطا فيما بعد، ولا يعرف من جدد بناءها[1]. ويذكر الفاكهى فى كتابه المنتقى : أنها أوقفت سنة ٤٠٢هـ[2]، ويقول النهر والى بأن الذى أوقفها والى مكة، وأنها كانت مخصصة لاقامة الحجاج فى فترة الموسم[3].

رباط الفُقَّاعية :

أوقف سنة ٤٩٢هـ ، ويقال أن الذى أوقفه الخليفة المقتدى بالله العباسى وشروط وقفيته على الأرامل والمنقطعات اللاتى يسكن مكة. ولم يذكر شرط وقفيته أنه أوقف لكى يكون مسكنا للحجاج فترة الموسم[4].

رباط القزوينى :

كان يقع قرب المسجد الحرام، وقد أوقف سنة ٥٢٩هـ ولم يعرف من الذى أوقفه، وانما شرط وقفيته على جميع الرجال الغرباء المقيمين فى مكة وسائر أنحاء العراق، كما أنه كان ينزل فيه حجاج قزوين[5].

رباط الدمشقية :

أنشأ هذا الرباط تجار مدينة دمشق، وسمى رباط الدمشقية نسبة الى مدينة دمشق

(١) الأزرقى : أخبار مكة، جـ ١، ص ١١٨.

(٢) الفاكهى : المنتقى، ص ٨٤.

(٣) النهروالى : الاعلام، ص ١٩٨.

ـ ابن ظهيرة : الجامع اللطيف، ص ٧٨.

(٤) الفاسى : شفاء الغرام، جـ ١، ص ١٠٩.

(٥) الصباغ : تحصيل المرام، ورقة ١٦٣ب.

حاضرة الشام . وقد أوقف هذا الرباط سنة ٥٢٩هـ وشرط وقفيته على الفقراء من أهل دمشق والعراق والعلماء المجاورين فى مكة والحجاج[١] .

ربطا الزرندى :

أوقف هذا الرباط الشيخ نجيب الدين أبوالحسن محمد الزرندى، من أهل زرنده[٢] على أهل ساوه[٣]، وأهل زرنده المقيمين فى مكة . وللحجاج القادمين من بلاد فارس، لهم حق فى الاقامة فيه فترة موسم الحج[٤] .

رباط المغاربة :

فى سنة ٥٦٢هـ أوقف مجموعة من أهل المغرب رباطا[٥] . ويقول الفاكهى : إنهم مجموعة من التجار بنوا رباطا بمنطقة السوق الصغير، المقابل للحرم للمقيمين فى مكة من طلبة العلم الرجال دون النساء يسكنون فيه، وللحجاج المغاربة حق السكن فى هذا الرباط فى فترة الموسم[٦] . وقد ذكر لى أحد المعمرين بمكة أن هذا الرباط كان موجوداً أمام باب ابراهيم عليه السلام، أحد أبواب الحرم الشريف قبل التوسعة الأخيرة التى قام بها المرحوم الملك عبدالعزيز بن سعود (١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م) وكان باب ابراهيم عليه اللاسم قبالة السوق الصغيرة . وبذلك يكون هذا الرباط قد أزيل ضمن ما أزيل من مدارس وأربطة وتكايا وسبل ودور مجاورة للحرم فى هذه التوسعة .

---

(١) الفاسى : شفاء الغرام، جـ ١، ص ١١٠ .
- النهروالى : الاعلام، ص ٢٠٠ .

(٢) زرنده : بلدة تقع بين أصفهان وساوه وهى مدينة قديمة وكبيرة، من أعيان مدن كرمان . انظر ياقوت : معجم، جـ ٣، ص ١٣٨ .

(٣) ساوه : بلدة تقع بين الرى وهمذان بالقرب من مدينة يقال لها : أوه .
انظر ياقوت : معجم، جـ ٣، ص ١١ .

(٤) الفاسى : شفاء الغرام، جـ ١، ص ١١١ .

(٥) المصدر السابق، جـ ١، ص ١١٢ .

(٦) الفاكهى : المنتقى، ص ٩١ .

رباطة الحضارمة :

استطاع تجار وأهالى حضرموت، أن يبنوا رباطا سنة ٥٧٠هـ ليكون سكنا لمن يقيم فى مكة من طلبة العلم، وللحجاج القادمين من حضرموت ويقع هذا الرباط فى منطقة أجياد[١]، وقد جدد بناء هذا الرباط فى العصر الحديث، ولايزال الحجاج الحضارمة ينزلون فيه فى موسم الحج حتى الآن.

رباط المراغى :

فى سنة ٥٧٥هـ أوقف قاضى القضاة، أبوبكر محمد بن عبدالله بن عبدالرحيم المراغى رباطا عند باب الجنائز، وكان شرط وقفيته على الصوفية الزهاد، الذين يسكنون مكة من العرب، ولم تذكر المصادر أنه كان سكنا للحجاج فى فترة الموسم[٢].

رباط البخارية :

فى سنة ٥٧٦هـ أوقف مجموعة من تجار مدينة بخارى رباطا فى مكة المكرمة، بمنطقة السوق الصغير، وجعلوه وقفا لحجاج بلاد بخارى، ولا يسكنه أحد سوى الحجاج الفقراء، فى فترة الموسم. وقد جدد بناء هذا الرباط فى العصر الحديث، غير أنه لا يستخدم الآن رباطا لنزول حجاج البخارية ولتجار بخارى عدة أربطة أكثرها فى المسفلة، لا نعرف متى أوقفت ولا من الذى أوقفها، وهذه الأربطة تبلغ مجموعها عشرة أربطة[٣]، لايزال موجودا منها حتى اليوم خمسة أربطة اثنان منها فى حالة متداعية، والثلاثة الأخرى جدد بناؤها وينزل فيها حجاج البخارية.

رباط الخاتون :

وفى العام التالى لوقف رباط البخارية أوقفت الخاتون، الشريفة فاطمة رباطا

---

(١) الفاسى: شفاء الغرام، جـ ١، ص ١١٢.

(٢) الفاكهى: المنتقى، ص ٨٦.

(٣) السفلة: أحد أحياء مكة.

الفاسى: شفاء الغرام، جـ ١، ص ١١٢.

سمى باسم الخاتون، وعرف فيها بعد برباط ابن محمود، ويقع عند باب العمرة. وشرط وقفيته على الصوفية من العرب والعجم، كما كان سكنا للحجاج من الصوفية القاصدين مكة لأداء الحج[1].

رباط قايباز :

أوقف هذا الرباط سنة ٥٧٨هـ الأمير قايباز بن عبدالله بن قليج أرسلان الشامى السلجوقى من أمراء سلاجقة الروم[2] فى منطقة المعلاة وشرط وقفيته أن يكون سكنا للمقيمين فى مكة م الأحناف، وللحجاج الأحناف فى فترة الموسم[3].

رباط الزنجبيلى :

فى سنة ٥٧٩هـ أنشأ عثمان بن على الزنجبيلى نائب أمير عدن عند باب العمرة رباطا أوقفه على الأحناف المقيمين بمكة وجعل فى شرط وقفيته أن يكون سكنا للحجاج القادمين من عدن فى فترة موسم الحج[4].

رباط المغاربة (رباط سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه)[5]:

ويوجد أيضا حتى وقتنا الحاضر، أى بعد التوسعة الأخيرة للحرم الشريف رباط «بالسوق الصغير» يعرف برباط المغاربة، كما يعرف الزقاق الذى يوجد فيه بزقاق المغاربة. وهذا الرباط وإن كان قد جدد الا أنه لايزال يوجد فوق مدخله اللوحة التأسيسية الخاصة ببنائه. وهى مكتوبة بالخط النسخ الواضح تقرأ على هذا النحو:

(١) بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على رسوله سيدنا محمد وعلى آله.

---

(١) الرشيدى: حسن الصفا، ورقة ١٧٣أ.

- النهروالى: الاعلام، ص ٢٠١.

(٢) أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدولة الاسلامية ومعجم الأمراء الحاكم، جـ١، ص ٣٢١.

(٣) الفاسى: شفاء الغرام، جـ ١، ص ١١٢.

(٤) المصدر السابق، جـ١، ص ١١٤.

(٥) يعرف هذا الرباط عند أهل مكة برباط سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه، وربما يرجع ذلك الى أن دار سيدنا عثمان كانت موجودة فى هذا المكان.

(٢)هذا ما وقف وحبس وسبل وتصدق به القاضى الفقيه الموفق المكين الأمين جمال الدين.

(٣) ولى أمير المؤمنين أبوالحسن على بن القاضى السعيد الأيمن أبى القاسم عبدالوهاب بن الشيخ أبى عبدالله محمد.

(٤) ابن أبى الفرج العدل بالأعمال المصرية رضى الله عنه، وقف وحبس وسبل وتصدق بجميع هذا الرباط .

(٥) على فقراء المغرب الغرباء المتعبدين ذوى الحاجات المجردين ليس للمتأهلين فيه حظ ولا نصيب.

(٦) تقبل الله ذلك منه وأثابه عليه بالاحسان وقف ذلك وحبسه بجميه حقوقه وقفا صحيحا.

(٧) (   )[1] فمن غير ذلك فعليه لعنة الله ولعنة اللاعنين وجرى ذلك فى سنة أربع وستمائة[2].

ومن هذا النقش يتضح لنا أن هذا الرباط بناه أحد قضاة مصر جمال الدين أبوالحسن على بن القاضى أبى القاسم عبدالوهاب بن الشيخ أبى عبدالله محمد بن أبى الفرج، وأنه أوقفه وتصدق به على فقراء المغرب الغرباء المتعبدين ذوى الحاجة المجردين فقط ، وأنه ليس للمتأهلين فيه حظ ولا نصيب.

ويبدو أن هذا القاضى المصرى كان من أصل مغربى، وكان بناء هذا الرباط سنة ٦٠٤هـ ، وقد عاينت هذا الرباط من الداخل والخارج، ووجدت فى داخله بئر لايزال باقيا حتى الآن، غير انه لم يعد مستعملا منذ عهد قريب بسبب توفير المياه الصحية فى مكة، ووجود هذه البئر داخل الرباط يوضح كلمة «سبل» التى وردت فى السطرين الثانى والرابع من هذا النقش. ولايزال فقراء المغاربة الغرباء الذين يفدون الى مكة ينزلون به حتى وقتنا الحاضر.

(١) لم استطع قراءة هذه الكلمات الموجودة فى بداية السطر السابع من هذا النقش.

(٢) انظر النقش الخاص بهذا الرباط .

ومن هذا العرض السابق يتضح لنا أن هذه الأربطة التى أقيمت فى مكة فى الفترة الزمنية لموضوع بحثنا لا يوجد منها حتى الآن سوى ثلاثة أربطة، وهى رباط المغاربة، ورباط البخارية، ورباط الحضارمة، وجمعها قد جدد بناؤها.

المدارس فى مكة ودورها فى اسكان الحجاج:

من المعروف أن إنشاء المدارس ذات الأروقة الأربعة بدأ ينتشر فى مدن العالم الإسلامى بعد إنشاء الوزير نظام الملك المدرسة النظامية فى بغداد، فقد انتشر فى القرن السادس الهجرى إنشاء المدارس من هذا الطراز لتدريس المذاهب الأربعة على غرار المدرسة النظامية[1].

وهذه المدارس وإن كانت مهمتها تعليمية بحتة، إلا أنها ترتبط بموضوع البحث من حيث أنها تستخدم فى موسم الحج سكنا للحجاج الذين كانوا ينزلون فى الغرف الملحقة بها ويحضرون ما كان يعقد فيها من حلقات علمية[2]. كما كانت هذه المدارس تخصص لاستقبال ضيوف أمير مكة وأمراء الحج فترة الموسم[3].

وقد بدأ التعليم فى الحجاز منذ صدر الإسلام، فقد اشتغل بالتدريس فى مكة عدد غير قليل من التابعين فى الحرم المكى، وكان ذلك بداية لنشوء الحركة العلمية[4].

وكانت الصدقات تفد من جميع أنحاء العالم الإسلامى الى هؤلاء العلماء والى من كان ينتسب إلى حلقاتهم العلمية من الطلبة والمجاورين الذين يقيمون فى الأربطة[5]

(١) حسن ابراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى، جـ ٣، ص ١٥٨.
(٢) النهروالى: الاعلام، ص ٧٨.
(٣) السباعى: تاريخ مكة، جـ ١، ص ٩٣.
(٤) النهروالى: الاعلام، ص ٨٠.
ـ ابراهيم رفعت: مرآة الحرمين، جـ ١، ص ٦٣.
(٥) الفاسى: العقد الثمين، جـ ٢، ص ٩٨.

ولا ننس فريضة الحج التى كان يجيء لأدائها علماء كثيرون من مختلف الأقطار كانوا يلتقون فى مكة ويتدارسون فيها بينهم ويأخذون عن بعضهم الحديث والتفسير واللغة، وكان بعضهم يطيب له المقام فى مكة فى هذه المدارس والأربطة من أجل العبادة والدراسة والتدريس[١].

وفى بداية القرن السادس الهجرى أنشئت المدارس فى مكة على غرار المدرسة النظامية، وكان يدرس فيها نخبة من الأساتذة تخرجوا على أيدى علماء خلقات الدرس بالمسجد الحرام، وكانت الدراسة تهتم بعلوم الدين (الحديث، التفسير، الفقه، علوم التصوف، والعلوم العربية)، وأما باقى العلوم فلم يكن لها نصيب فى الدرس[٢].

ومن المعلوم أن للخلفاء العباسيين والأمراء والوزراء مآثر جليلة فى مكة المكرمة، وأوقافا محبوسة على وجوه البر المختلفة. وقد ذكرنا الأربطة التى أوقفت فى مكة، وأوضحنا مدى أهميتها فى اسكان الحجاج فترة موسم الحج. أما المدارس فقد بدأ العلماء والوزراء يهتمون بانشائها فى أواخر العصر العباسى. كما أن الخليفة المستنصر بالله العباسى أنشأ البيمارستان المستنصرى فى سنة ٦٢٨هـ فى الجانب الشمالى للمسجد الحرام[٣]، وفيما يختص بالمدارس فقد أنشئت جميعها حول الحرم المكى، وفيما يلى ذكر لما أنشىء منها فى فترة موضوع هذا البحث. .

مدرسة الأرسوفى:

أنشئت سنة ٥٧١هـ وسميت بمدرسة الأرسوفى نسبة الى العفيفى عبدالله بن محمد الأرسوفى. وكانت تقع عند باب العمرة، وقد بنى بجوارها رباطا أوقفه لسكن طلبة المدرسة[٤]. ويقال أنه كان يقع فى جهة الشبيكة[٥].

(١) الفاسى: العقد الثمين، جـ٢، ص ١٠١.
(٢) ابن فهد: اتحاف الورى، جـ٣، ورقة ٢١٥أ.
(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ ١١، ص ٦٧٣.
(٤) الفاكهى: المنتقى، ص ٩١.
(٥) الفاسى: شفاء الغرام، جـ١، ص ١٥٦.

مدرسة الزنجبيلى :

فى سنة ٥٧٩هـ أنشأ الأمير فخر الدين عثمان بن على الزنجبيلى نائب عدن مدرسة عند باب العمرة وخصص هذه المدرسة لتدريس الفقه الحنبلى والتفسير(١)، ولقد أنشأ بجوارها رباطه المعروف وكان من شروط وقفيته أن يكون سكنا للطلاب والحجاج(٢).

مدرسة طاب الزمان :

أسست سنة ٥٨٠هـ فى الوضع المعروف بدار زبيدة وتنسب هذه المدرسة الى طاب الزمان الحبشية عتيقة الخليفة المستضىء بالله العباسى . وكانت هذه المدرسة مخصصة لتدريس الفقه على المذهب الشافعى ، وقد أوقفت على فقهاء الشافعية المقيمين فى مكة المكرمة(٣).

مدرسة ابن أبى زكريا :

أسسها على بن أبى زكريا الملقب بأبى طاهر المؤذن سنة ٦٣٥هـ ، وكانت تقع فى الجهة الجنوبية من المسجد الحرام . هذا ولم يذكر شىء عمن كان يدرس بها(٤).

مدرسة ابن الحداد المهدوى :

أسست سنة ٦٣٨هـ قرب مدرسة الأرسوفى ثم عرفت بعد ذلك باسم مدرسة الأشراف، وقد خصصت لتدريس المذهب المالكى(٥). ويقول الفاكهى أن الذى أوقفها جماعة من أهل المغرب تبرعوا ببنائها، وإنما نسبت إلى أبى الحداد لأنه هو الشيخ الذى كان يقوم بالتدريس بها(٦).

---

(١) النهروالى: الاعلام، ص ٧٩.

(٢) الأسدى: أخبار الكرام، ورقة ٩٠ب (مكتبة الحرم المكى).

(٣) الفاسى: شفاء الغرام، جـ١، ص ١٥٦.

ـ الفاكهى: المنتقى، ص ١٠٥.

(٤) الفاسى: شفاء الغرام، جـ١، ص ١٥٧.

(٥) الفاكهى: المنتقى، ص ١٠٦.

(٦) الفاسى: شفاء الغرام، جـ١، ص ١٦٠.

المدرسة المظفرية :

أسست سنة ٦٤١هـ وكانت تقع قرب باب العمرة وتشرف نوافذها على المسجد الحرام، ولقد عرفت بالفخرية أو بمدرسة الشلاج، ثم عرفت أخيرا بالمدرسة المنصورية أو مدرسة السلطان(١).

ويبدو أن هذه الأسماء كانت تطلق عليها نسبة الى اسم واقفها أو لقبه أو اسم الذى قام ببنائها. فلقد سميت بالمظفرية نسبة الى الملك المظفر والد الأمير فخر الدين، وبالفخرية نسبة الى الأمير فخر الدين الشلاج أمير مكة، وبالمنصورية نسبة الى الملك المنصور على بن عمر بن رسول صاحب اليمن لأنه أمر ببنائها. وقد خصصت هذه المدرسة لتدريس الفقه الشافعى(٢). وقد ذكرها ابن بطوطة فى رحلته حينما أتى لفريضة الحج، وذكرها باسم المدرسة المظفرية(٣). وكان لهذه المدرسة بركة وسبيل بجوارها أوقفه الملك المنصور صاحب اليمن، ويقال أن هذه المدرسة فى سنة ٦٤٥هـ كانت مقرا للملك المنصور وزوجته حينما أتيا لأداء فريضة الحج وأن زوجته أمرت بحفر بئر بها لانتفاع الطلاب من هذه البئر فى سقياهم(٤).

وفى سنة ٦٤٢هـ أمر الخليفة العباسى المستنصر لدين الله بانشاء مكتبة فى هذه المدرسة وأرسل الأموال من بغداد لهذا الغرض(٥).

المدرسة الشرابية :

أسس هذه المدرسة سنة ٦٤١هـ الأمير شرف الدين الشرابى المستنصرى العباسى وكانت تقع عند باب السلام(٦). ولم يذكر الفاسى فى كتابه شفاء الغرام شيئا عنها،

(١) ابن فهد: اتحاف الورى، جـ٢، ورقة ١١٨أ.
- ابن الضيا: قرة العيون، جـ٢، ص
(٢) ابن فهد: اتحاف الورى، جـ٢، ورقة ١١٩أ.
(٣) ابن بطوطة: الرحلة، ص ١٣٩ (٣).
- الفاكهى: المنتقى، ص ١٠٦.
(٤) - النهروالى: الاعلام، ص ٨١.
(٥) ابن الأثير: الكامل. جـ١٢، ص ٦٧٥.
- النهروالى: الأعلام، ص ٨٢.
(٦) ناجى معروف: المدارس الشرابية، ص ٣٣٠.

غير أن صاحب كتاب اتحاف الورى ذكر بأنها كانت موجودة سنة ٩٨٨هـ[1]. وبجوار مدرسته هذه بنى رباط سمى برباط الشرابى، ذكره ابن بطوطة فى رحلته، كما أشار الى وجود هذه المدرسة[2].

وتتكون هذه المدرسة من طابقين، الطابق السفلى منها عبارة عن حجرات صغيرة تشبه الخلاوى، والعلوى عبارة عن حجرات كبيرة لإقامة الدرس[3] وقد لاحظ الدكتور ناجى معروف مؤلف كتاب المدارس الشرابية الذى قام بأداء فريضة الحج عام ١٣٦٥هـ وزار المنطقة التى كانت تقع فيها هذه المدرسة أنه وجد بقايا بعض المبانى التى تشبه شرابية بغداد فى التصميم، كما وجد بعض الزخارف على بعض الجدران تشبه الزخارف الموجودة بالمدرسة الشرابية ببغداد[4]. ولقد استطاع من خلال ملحوظاته هذه أن يتعرف على هذه المدرسة التى أهملها مؤرخو تاريخ مكة.

ولقد اهتم الشرابى بهذه المدرسة، إذ أسس بها مكتبة وأوقف عليها كتبا كثيرة وجعل هذه المدرسة متخصصة فى تدريس المذاهب الأربعة، الى جانب دروس النحو والأدب، وكانت الدراسة فيها على نظام المدرسة النظامية، وكان طلاب هذه المدرسة من العرب والعجم[5].

ولقد أوقف لهذه المدرسة أوقاف كثيرة بوادى نخلة، ووادي مر، وأن حصيلة هذه الأوقاف كانت ترسل الى هذه المدرسة ليتم توزيعها على المدرسين والطلبة بها[6].

وليس ثمة شك فى أن هذا العمل الذى قام به شرف الدين الشرابى فى عهد الخليفة العباسى المستنصر انما يدل على حبه للعلم وطلابه.

---

(١) ابن فهد: اتحاف الورى، جـ ٢، ورقة ٢٧٥.

(٢) ابن بطوطة: الرحلة، ص ١٤٢.

(٣) النهروالى: الاعلام، ص ١٦٩.

(٤) ناجى معروف: المدارس الشرابية، ص ٢٣١.

(٥) النهروالى: الاعلام، ص ١٧١.

(٦) ابن فهد: اتحاف الورى، جـ ١، ورقة ١٧٨أ.

- ابن بطوطة: الرحلة، ص ١٥٣.

- ناجى معروف: المدارس الشرابية، ص ٤٣٤.

الفصـــل الثالـث

خدمات الحجاج ومرافق الحج فى أمكنة المشاعر

١ - توفير الاقامة وتأمين الطعام للحجاج فى المشاعر:

أ - عرفــة.

ب - مزدلفــة.

جـ - مــنى.

٢ - توفيـر الميـاه.

٣ - أعطيات الخلفاء لولاة مكة.

توفير الإقامة وتأمين الطعام للحجاج فى المشاعر:

يؤدى الحجاج نسكهم فى وقت مخصوص فى أمكنة معروفة. ولقد حدد القرآن الكريم والسنة الشريفة هذا الوقت المخصص والأمكنة المعلومة وهى تعرف بالمشاعر.

ففى اليوم السابع من شهر ذى الحجة من كل عام يبدأ الحجاج استعدادهم للرحيل من مكة المكرمة حيث تبدأ قوافل الحجاج فى نقلهم فى اليوم الثامن من شهر ذى الحجة إلى منى[١]. ويسمى هذا اليوم بيوم التروية[٢]. وقبل صلاة العصر يصل الحجاج إلى منى حيث يمكثون بها فى المخيمات التى أعدها لهم أهل مكة. وفى منى يؤدى الحجاج صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء ويبيتون فيها.

وفى صباح اليوم التاسع من شهر ذى الحجة، بعد صلاة الفجر فى مسجد الخيف بمنى، يرحل الحجاج قاصدين عرفة. وفى طريقهم يخترقون وادى محسر ثم مزدلفة ثم وادى عرنة ثم يدخلون عرفة[٣]. وهناك ينزلون بالخيام التى أعدها أهل مكة لإقامتهم بها فى ذلك اليوم، وتعد عرفة أول مشاعر الحج.

أ ـ عرفة:

وتقع فى شرق مكة المكرمة وهى عبارة عن منطقة منبسطة وفسيحة من الأرض تحيط بها الجبال، وتوجد على أطرافها صخور وهضاب[٤]. وتعرف باسم عرفة أو عرفات، فهما اسمان لموضع واحد، وهناك أكثر من رواية فى سبب تسميتها بذلك، فيذكر لنا ياقوت بأن سبب تسميتها يعود الى قصة جبريل وابراهيم عليهما

(١) الأزرقى: أخبار مكة، جـ٢، ص ١٨٠.
ـ الفاسى: العقد الثمين، جـ١، ص ٩٥.

(٢) يعرف اليوم الثامن من شهر ذى الحجة بيوم التروية لتزود الحجاج بالماء فى هذا اليوم.

(٣) الأزرقى: أخبار مكة، جـ٢، ص ١٨١.
ـ الفاسى: العقد الثمين، جـ١، ص ٩٧.

(٤) الاصطخرى: مسالك الممالك، ص ٢٥.

السلام، فحينما عرّف جبريل عليه السلام، ابراهيم عليه السلام، المناسك وأوقفه بعرفة قال له: عرفت؟ قال: نعم. فسميت عرفة [1].

وهناك رواية أخرى في سبب التسمية حيث يعتقد بأن آدم عليه السلام وحواء تعارفا بها. ويقال أيضا بأن الناس يعترفون بذنوبهم فيها ولذلك سميت عرفة [2].

وبعد وصول الحجاج الى عرفة فى صبيحة اليوم التاسع من ذى الحجة يمكثون بهـا حتى غروب شمس ذلك اليوم. وغالبا ما كان يصل أهل مكة إلى عرفة قبل الحجاج ليضربوا لهم الخيام من أجل إقامتهم فيها. ولا يكون الحاج حاجا الا إذا شاهد الوقوف بعرفة، ففى الحديث الشريف: (الحج عرفة) [3]. وفى يوم عرفة يلقى أمير الحج خطبة على الحجاج يوضح لهم فيها المناسك ويشرح لهم عظمة يوم عرفة [4]. ويجمع أمير الحج بين الظهر والعصر فى وقت الظهر جمع تقديم وقصر [5]. ولا ينفـر الحجـاج إلى مزدلفـة الا بعـد أن يأذن لهم الحـج بالنفـرة بعد غروب الشمس [6]. ويتقدم أمير الحج جميع ركبان الحج سالكا طريق خب. ولقد روى بأن طريق خب هو الطريق الذى سلكه الرسول صلى الله عليه وسلم، فى حجة الوداع. ومن المفيد أن نشير الى أن طريق خب هو أقرب الطرق للنافر من عرفة الى مزدلفة، التى تعد ثانى أمكنة المشاعر.

ب ـ مزدلفـــة:

وتقع بين عرفة ومنى ويفصلها عن منى وادى محسر، فى داخل حدود حرم مكة المكرمة، ولهذا تسمى بالمشعر الحرام. وتعرف مزدلفة باسم جمع. ويروى بأن

---

(١) ياقوت: معجم، جـ ٤، ص ١٠٤.

(٢) الزبيدى: تاج العروس، مادة عرفة.

(٣) على المالكى: الشافى الصغير، ورقة ٦٣ب.

(٤) الجزيرى: درر الفوائد، ص ٧٨.

ـ الفاسى: شفاء الغرام، جـ ١، ص ١٩٨.

(٥) على المالكى: الشافى الصغير، ورقة ٦٤أ.

(٦) الجزيرى: درر الفوائد، ص ٧٩.

تسمية مزدلفة مأخوذ من الأزدلاف. ويقال من الاقتراب، وقيل أيضا لازدلاف آدم وحواء بها أى لاجتماعهما(1). ويضيف الزبيدى قوله بأنها سميت بمزدلفة لنزول الناس بها فى زلفى الليل، وأنها سميت جمع لاجتماع الناس بها(2). بينما يذكر ياقوت بأنها سميت مزدلفة لجمع الحجاج صلاتى المغرب والعشاء بها(3).

ويصل الحجاج إلى مزدلفة بعد نفورهم من عرفات، وتعد مبيتا لهم. وفيها تجمع وتقصر صلاتى المغرب والعشاء(4). ويمكث بعض الحجاج بمزدلفة حتى بعد صلاة الفجر ومنها يلتقط الحجاج حصى الجمرات. هذا ويستحب النزول بها دون جبل قزح(5). ويذكر الفاسى بأن القصد من توقف الحجاج فى مزدلفهم إشعارهم بأنهم قد انتهوا من الواجب الأساسى للحج، وأنهم أصبحوا بذلك حجاجا. وأنه بمجرد إفاضتهم من مزدلفة الى منى يصبحون معيدين عيد الأضحى المبارك. وقد يسبق أهل مكة الحجاج فى الإفاضة من مزدلفة إلى منى(6).

جـ - منى:

وتقع منى فى غرب مزدلفة ويفصلها عن مزدلفة وادى محسر. ولقد ذكر فى حدودها بأنها تبدأ من وادى محسر إلى مهبط العقبة(7). ومنى كمزدلفة من حيث وقوعها داخل حدود الحرم المكى. ويمكن وصف منى بأنها واد صغير يضم شعبانا متعددة، وفى الطرف الأيمن منها يقع مسجد الكبش قرب العقبة، وعلى الطرف الأيسر من وسطها يقع مسجد الخيف، وتوجد الجمرات الثلاثة فى منى، وهى جمرة العقبة الأولى، وجمرة العقبة الوسطى، وجمرة العقبة الصغرى. ولقد سميت

---

(1) الجزيري: درر الفوائد، ص ٨٠.
(2) الزبيدى: تاج العروس، مادة مزدلفة.
(3) ياقوت: معجم، جـ ٥، ص ٧٣.
(4) على المالكى: الشافى الصغير، ورقة ٦٥أ.
(5) الجزيرى: درر الفوائد، ص ٧٨.
(6) الفاسى: شفاء الغرام، جـ ١، ص ٢٠١.
(7) ياقوت: معجم، جـ ٥، ص ١١٢.

منى لما يمنى بها من الدماء أى يراق، وقيل أن آدم عليه السلام، منى فيها الجنة [١]. وعدد سكان منى فى غير أيام الحج قليل، فهى تعمر أيام الموسم، وتخلو بقية أيام السنة وقل أن يوجد فى الدولة الإسلامية مكان يتصف بهذه الصفة.

وبمجرد عبور الحجاج لوادى محسر يدخلون منى ويمكثون فيها ثلاثة أيام تعرف بأيام التشريق، وهى أيام عيد الأضحى المبارك التى يتعارف فيها الحجاج ويتزاورون. هذا ويقيم حجاج كل ركب فى مكان معد وخاص بهم. ويقوم أهل مكة بنصب الخيام فى هذه الأماكن ليقيم الحجاج فيها أيام التشريق. وتوجد بمنى بعض الأبنية منذ العصر الجاهلى، كما يوجد بها أبنية أخرى أقيمت من أجل نزول أمراء الركباء والخلفاء وحاشيتهم [٢]. ويوجد بمنى سوق يبدأ عمله فى اليوم العاشر من شهر ذى الحجة [٣]. ويعرف هذا السوق بسوق العرب، ويعرض فيه كثير مما يصنعه أهل مكة من أنواع الأطعمة والملبوسات والهدايا الخاصة بالحجاج. وهكذا يتم التبادل التجارى فى منى طوال أيام التشريق. هذا ويبدأ الحجاج بذبح هديهم فى منى فى اليوم الأول من أيام التشريق. إذ تعد أيام منى أيام خاصة بذبح الهدى لجميع الحجاج [٤]. وبانتهاء اليوم الثالث من أيام التشريق يبدأ رحيل الحجاج بعد وقت الزوال من منى متجهين الى مكة. وهكذا يمسون وقد أنهوا مناسك الحج [٥].

ولعله من المفيد أن نشير إلى أن قيام بعض أهل مكة بنصب الخيام فى عرفات ومنى ليقيم فيها الحجاج قد بدأ فى السنة العاشرة من الهجرة. ففى هذه السنة كلف والى مكة عتاب بن أسيد بعض القرشيين فى مكة بعمل الخيام فى عرفات ومنى [٦]. وقد ظل

---

(١) الزبيدى: تاج العروس، مادة منى.

(٢) الأزرقى: أخبار مكة، جـ٢، ص ١٩٠.

ـ الفاسى: شفاء الغرام، جـ١، ص ٢٠٢.

ـ النهروالى: الاعلام بأعلام بيت الله الحرام، ص ٨٥.

(٣) الأزرقى: أخبار مكة، جـ٢، ص ١٩٣.

(٤) ابراهيم رفعت: مرآة الحرمين، جـ١، ص ٥٣.

(٥) يوسف أحمد: المحمل والحج، ص ٥٤.

(٦) ابراهيم رفعت: مرآة الحرمين، جـ١، ص ٥٤.

هذا العمـل يمارسـه بعض أهل مكة حتى الوقت الحاضر، ويعرف القائمون بهذا العمـل بالمطوفين. ولا يقتصر عمل المطوفين على ذلك، بل يقدمون الى الحجاج خدمات أخرى مقابل ما يدفعونه اليهم، هذا وإن مهنة الطوافة هذه تعد مهنة حديثة لم يكن لها وجود فى الفترة الزمنية الخاصة بموضوع بحثنا.

ومن الجدير أن نذكر أن صناعة الخيام قد نشطت فى بعض الأمصار الإسلامية وخاصة فى مصر منذ الفتح الإسلامى لها وكان التجار من حجاج مصر يفدون الى مكة ومعهم الخيام حيث كانوا يبيعونها إلى تجار مكة.

توفير المياه فى مشاعر الحج:

كانت موارد المياه فى مشاعر الحج تعتمد على مياه الآبار القديمة التى حفرت فى العصر الجاهلى. وحينما حج الرسول صلى الله عليه وسلم، حجة الوداع، استقى الحجاج من هذه الآبار مثل بئر (السقيا) وبئر (الركايا) فى عرفات[١]. وقد اصطحب الرسول صلى الله عليه وسلم السقاة معه من مكة، وكان يتولى أمر السقاية عمه العباس رضى الله عنه، وأبناؤه الذين كانوا يقومون بتوفير المياه للحجاج طيلة أيام الحج[٢].

ولقد اهتم الخلفاء الراشدون بحفر الآبار فى أمكنة المشاعر بعد أن بدأ يفد الى مكة المكرمة أعداد كبيرة من الحجاج من خارج شبه الجزيرة العربية[٣]. ففى سنة ١١هـ أمر أبوبكر الصديق رضى الله عنه، بإصلاح بئر السقيا وتجديد بناء جدار هذا البئر، هذا ويقع بئر السقيا بين مأزمى عرفة ومسجد نمرة. وفى نفس السنة أمر باصلاح بئر (ركايا والياقوتة)[٤]، ويقع بئر ركايا فى جنوب شرقى عرفة، بينما يقع بئر الياقوتة فى منى[٥].

(١) الفاسى: شفاء الغرام، جـ١، ص ٨٥.
(٢) المصدر السابق: جـ ١، ص ٨٨.
(٣) الأزرقى: أخبار مكة، جـ٢، ص ١٩٨.
(٤) المصدر السابق: جـ٢، ص ١٩٩.
(٥) النهروالى: الاعلام، ص ١٧٣.

وفى سنة ١٥هـ أمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بحفر بئر (الروا) الذى يقع فى الوادى ما بين مزدلفة وعرفة. وقد اهتم أمير المؤمنين رضى الله عنه، بأمر سقاية الحجاج فى فترة الموسم فأمر السقاة بحمل المياه على الدواب وتوزيعها فى أمكنة الحج حتى لا يعانى الحجاج نقصا فى الماء[١].

وفى سنة ٦٥هـ حفر عبدالله بن الزبير بئرا فى منى، عرف هذا البئر باسم بئر عمر نسبة إلى بانيه عمر الخزاعى[٢]. وبعد مقتل عبدالله بن الزبير اهتم خلفاء الدولة الأموية وولاتهم على مكة بتوفير المياه فى أمكنة الحج. فقد قام الحجاج بن يوسف الثقفى والى مكة بتجديد إصلاح بئر ركايا كما وأنه أصلح بئر الياقوتة فى نفس السنة[٣]. وقام بتوزيع السقاة فى أمكنة الحج لتوفير المياه للحجاج[٤].

ويجدر بنا أن نشير إلى أن أبناء العباس رضى الله عنه، لم يكن لهم سوى سقاية الحجاج من بئر زمزم فى مكة، إذ أن خلفاء بنى أمية لم يعهدوا اليهم بسقاية الحجاج فى المشاعر، وكان ذلك موكولا إلى والى مكة الذى كان من أهم واجباته توفير المياه للحجاج فى المشاعر طوال أيام الحج[٥].

وفى سنة ٩٧هـ أمر الخليفة سليمان بن عبدالملك باصلاح بئر عمر، ثم أمر باصلاح بئر الصلاصل وهوبئر قديم كان معروفا منذ الجاهلية، وكان يقع قرب العقبة بمنى[٦].

وفى عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه، جدد بناء بئر التجار، ويقع هذا البئر فى منى، هذا البئر كان معروفا منذ الجاهلية. ومن المفيد أن نشير الى أنه غدا بعد تجديده صالحا لسقاية الحجاج فى منى[٧].

---

(١) ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص ٨٢.

(٢) الأزرقى: أخبار مكة، جـ ٢، ص ١٨٦.

(٣) المصدر السابق، جـ ٢، ص ١٨٧.

(٤) المصدر السابق، جـ ٢، ص ١٩٠.

(٥) أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص ٤٥٩.

(٦) النهروالى: الاعلام، ص ١٧٧.

(٧) الصباغ: تحصيل المرام، ورقة ٨٠. ـ الفاسى: شفاء الغرام، جـ ١، ص ٨٩.

وبعد أن آلت الخلافة إلى البيت العباسى، وازداد عدد الوافدين إلى مكة المكرمة أصبحت مياه هذه الآبار غير كافية لسد حاجة الحجاج فى موسم الحج. ولذلك قام الخلفاء العباسيون الأوائل باحضار الغلمان من أجل توفير المياه لسقاية الحجاج، وكانوا غالبا ما يحضرون المياه من خارج أمكنة المشاعر بواسطة الدواب[1]. كما اهتم الخلفاء العباسيون الأوائل باصلاح بعض الآبار الواقعة فى أمكنة المشاعر. فقد أمر أبوجعفر المنصورفى سنة ١٣٨هـ باصلاح بئر الياقوتة بمنى. كما أمر الخليفة المهدى سنة ١٥٩هـ بإصلاح بئر السقيا وقد قام بإصلاحه مولاه خالصه، لهذا اصطلح على تسمية هذا البئر ببئر خالصة[2].

وفى عام ١٩٣هـ نقصت المياه فى أمكنة المشاعر وأصاب الحجاج عطش شديد، وقيل أن راوية الماء بيعت بعشرة دراهم[3].

وحينما علمت السيدة زبيدة زوج هارون الرشيد بما عاناه الحجاج من عطش شديد أمرت بإيصال عين وادى النعمان الى جبل الرحمة بعرفة، ومن عرفة إلى مكة، وكلفت المهندسين والصناع والعمال بعمل الدراسات اللازمة لذلك. كما أمرت ببناء بركة كبيرة قرب جبل الرحمة وايصال قنوات مياه عين وادى النعمان اليها[4].

ومن المعلوم أن قناة وادى النعمان تسير فى داخل الأرض من منبع العين حتى بعد حدود عرفة، ثم تسير مع سفوح الجبال حتى نهاية مصبها فى بئر زبيدة فى حوض البقر. وأن طريقة عمل القناة تعبر عن الفن الهندسى المتقدم الذى وصل إليه الفن

(١) الجزيرى: درر الفوائد، ص ٢١٣.
(٢) الأزرقى: أخبار مكة، جـ٢، ص ٢٠٧.
- الفاسى: فاء الغرام، جـ١، ص ٩٠.
- البلاذرى: فتوح البلدان، جـ١، ص ٦٠.
(٣) الأزرقى: أخبار مكة، جـ٢، ص ٢٢٦.
- الفاسى: شفاء الغرام، جـ١، ص ١٠٣.
(٤) الأزرقى: أخبار مكة، جـ٢، ص ٢٢٩.
- الفاسى: شفاء الغرام، جـ١، ص ٣٤٦.
- عبدالقادر ملا قلندر: الخلاصة المفيدة لأحوال عين زبيدة، ص ١٥.

المعمارى الإسلامى فى تلك الحقبة الزمنية، فإن القناة لا تسير فى خط مستقيم واحد، بل فى تعاريج اقتضتها طبيعة الأرض. وإن انحدار الماء فى داخل القناة كان خفيفا خشية من حفر الأرض اذا كان انحدار الماء شديدا.

ويمكننا أن نذكر بأن مياه عين وادى النعمان لم تصل إلى مكة كما كانت ترغب السيدة زبيدة. ويرجع السبب فى هذا إلى صعوبة المنطقة الجبلية من حوض البقر إلى مكة. ولقد أقيمت على القناة فيما بين عرفة وحوض البقر خمس وعشرون خرزة من أجل سقاية الحجاج فى منى ومزدلفة. كما كلفت والى مكة باصلاح قناة هذه العين وبوضع الحراسة عليها[1].

وفى سنة ٢٤١هـ تصدعت بعض أجزاء قناة عين زبيدة، وعلم الخليفة المتوكل على الله بذلك، وأمر واليه على مكة بإصلاحها لكى لا يواجه الحجاج نقصا فى الماء فترة الموسم[2].

هذا ولم تتحدث المصادر القديمة عن أية إصلاحات لهذه العين فى الفترة التالية لخلافة المتوكل على الله. غير أن ابراهيم رفعت فى كتابه مرآة الحرمين، الجزء الأول، ص ٢١٤، ص ٢١٥ نشر أربعة نقوش أثرية كانت موجودة فى زمنه على أربع لوحات رخامية أسفل جبل الرحمة بعرفة. ثلاث منها تشير إلى إصلاح عين عرفة والمصانع التى بها فى خلافة الخليفة العباس أبوالعباس أحمد الناصر لدين الله، والرابعة تشير الى إصلاحها فى خلافة الخليفة العباسى أبوجعفر المنصور المستنصر بالله سنة ٦٢٣هـ، ٦٤٠هـ[3] ولقد أزيلت هذه اللوحات عن موضعها ونقلت إلى مصلحة الآثار السعودية التي لاتزال فى بداية عهدها بالعمل الأثرى، وبما ان ما جمعته من نقوش أثرية لم تتم

(١) الفاسى: شفاء الغرام، جـ ١، ص ٣٤٧.
- محمد أنور شكرى: لوحات أثريات، ص ٨، مطابع دار الثقافة، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.
- مصطفى نبيل: مواقع التاريخ تحت الرمال - العربى، العدد ٢٣٤ عام ١٩٧٨م.

(٢) الأزرقى: أخبار مكة، جـ ٢، ص ٢٣٢.
- ابراهيم رفعت: مرآة الحرمين، جـ ١، ص ٢٠٨.

(٣) ابراهيم رفعت: مرآة الحرمين، جـ ١، ص ٢١٥.

دراسته بعد، فإنى اكتفى بنقل هذه النقوش كما ورد فى كتاب مرآة الحرمين. وإليك نص النقش الأول.

١ ـ بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى امام الله ظل مولانا الإمام.

٢ ـ الناصر لدين الله أمير المؤمنين أعز الله أنصاره، أمر الإمام الاصفهتيلار.

٣ ـ الكبير نصير الدين بن زين الدين صاحب أربل. . سنة ٥٠٠هـ لأبى جعفر.

٤ ـ المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين أعز الله ببقائه الإسلام[١].

ويبدو أن ابراهيم رفعت لم يتمكن من قراءة هذا النقش قراءة صحيحة، لأن التاريخ الذى أورده وهو سنة ٥٠٠هـ يتنافى مع الحقائق التاريخية التى تضمنها النقش، فالخليفة العباسى الناصر لدين الله الذى ورد اسمه فى هذا النقش تولى الخلافة فى الفترة من سنة ٥٧٥هـ حتى سنة ٦٢٢هـ[٢]. وكذلك الأمير الكبير نصير الدين زين الدين صاحب أربل هو ابن أتابك أربل زين الدين يوسف بن على الذى تولى أتابكية اربل من سنة ٥٦٣هـ حتى سنة ٥٨٦هـ[٣].

والنقش الثانى يدل على عمارة عين وادى النعمان بأمر من الخليفة العباسى أبوالعباس أحمد الناصر لدين الله سنة ٥٨٤هـ ونصه كالتالى:

١ ـ بسم الله الرحمن الرحيم: أمر سيدنا ومولانا الامام خليفة الله على كافة أهل الإسلام.

٢ ـ أبوالعباس أحمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين أعز الله أنصاره وضاعف اقتداره.

٣ ـ لعمارة عين عرفة والمصانع لحجاج بيت الله الحرام، أجزل الله ثوابه آمين، وذلك

---

(١) ابراهيم رفعت: مرآة الحرمين، جـ ١، ص ٢١٤.

(٢) أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدولة الاسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة: جـ ١، ص ١٣.

(٣) المرجع السابق، جـ ٢، ص ٣٤٩.

ـ عصام الدين عبدالرؤوف: فى بلاد الجزيرة، ص ٢٦٧.

٤ ـ على يد الأمير الاصفهتيلار[١] الكبير مجير الدين أمير الحاج والحرمين طاشتكين نصر[٢]

٥ ـ أمير المؤمنين أدام الله توفيقه، وذلك فى سنة أربع وثمانين.

٦ ـ خمسمائة)[٣]

ويشير النقش الثالث الى عمارة عين عرفة فى سنة ٥٩٤هـ وذلك بناء على أمر الخليفة أبى العباس أحمد الناصر لدين الله ونصه:

١ ـ (بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد النبى وآله، أمر بعمارة عين عرفة.

٢ ـ والمصانع الى بها ملتفة مولانا أمير المؤمنين[٤] أعز الله أنصاره وضاعف اقتداره.

٣ ـ ويلغه سؤاله ومناه وأمله ومبتغاه فى سلالته الطاهرة وفترته الزاهرة.

٤ ـ أمير الأمراء الأجل السيد الاصفهتيلار[٥] الكبير مظفر الدين بكيرى[٦] ابن على.

٥ ـ صاحب اربل سيف أمير المؤمنين أيد الله سلطاته وأعلى أبدا شأنه سنة ٥٩٤هـ . تقبل عن يد عبدالرحمن بن أبى جرمى عفا الله عنه). [٧]

---

(١) الاصفهتيلار: هكذا قرأه ابراهيم رفعت، وصحته (الاسفهسلار) وهى لقب مركب من لفظين: فارسى وتركى، اللفظ الأول (أسفه) ومعناها بالفارسية يعنى المقدم، واللفظ الثانى (سلار) تركى يعنى العسكر، وبذلك يكون معنى اللقب، مقدم العسكر. وكان هذا اللقب مستعملا فى الدولة الفارسية، ومنها انتقل الى العصر العباسى فى بغداد، وقد ظل مستعملا طوال العصر العباسى حتى عصر الأتابكة.

- انظر: حسن الباشا: الألقاب الاسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار، ص ١٥٦، ١٥٨.

(٢) لم استطع التعرف على اسم هذا الأمير.

(٣) ابراهيم رفعت: مرآة الحرمين، جـ ١، ص٢١٥.

(٤) أى الخليفة العباسى أبو العباس أحمد الناصر لدين الله.

(٥) هكذا قرأه ابراهيم رفعت انظر حاشية رقم (١) من الصفحة السابقة.

(٦) هكذا قرأه ابراهيم رفعت: وهو مظفر الدين كوكبرى بن على أتابك اربل سنة ٥٨٦هـ حتى سنة ٦٣٠هـ وقد قام هذا الأتابك بجهود كبيرة فى توسيع أتابكيته على حساب الاتابكيات المجاورة، كما كان له نفوذ كبير فى دار الخلافة. انظر:

- أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدولة الاسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة، جـ ٢، ص ٣٤٩.

- عصام الدين عبدالرؤوف: فى بلاد الجزيرة، ص ٤٠، ٤١، ٦٣، ٨٧، ٢٦٧.

(٧) ابراهيم رفعت: مرآة الحرمين، جـ ١، ص ٢١٥.

وأما النقش الرابع، فيشير إلى عمارة عين عرفة والبرك الملتفة بها بعد أن تعطلت مدة عشرين سنة، وذلك بأمر الخليفة العباسى المستنصر بالله. ولم يحدد النقش تاريخ هذه العمارة، غير أن ابراهيم رفعت فى كتابه مرآة الحرمين، يذكر أن المستنصر بالله عمّر عين عرفة فى سنة ٦٢٥هـ وسنة ٦٢٧هـ، وفى سنة ٦٣٣هـ[١]، واليك نص هذا النقش:

١ - (بسم الله الرحمن الرحيم للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) شرع لعمارة.
٢ - هذه البركة لوجه الله تعالى وأضيافه بهم الملائكة صلى الله تعالى
٣ - ورجاء عفوه (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا) بالاربل[٢]
٤ - الاشرف النبوى الامامى المستنصرى زاده الله تعالى شرفا، وقد
٥ - شاده حلال المطوع بعمارة عين عرفة والبرك التى بها ملتفة بعد عطلها.
٦ - خرابا عشرين سنة، المولى الأمير الكبير السيد المؤيد المظفر المجاهد
٧ - شرف الدين جلال الدولة عبد الخلافة المعظم محى الامامة المكرمة
٨ - ملك الملك ومليك المعالى زعيم الجيوش ملك الملك الامام الأعز
٩ - أبو الفضائل والمكارم أمثال الخاص النبوى المستنصرى خاص أمير
١٠ - المؤمنين مملوك سيدنا ومولانا الامام الأعظم المفتقر الى الطاعة
١١ - على جميع الأمم عبدالله خليفة الله فى أرضه المستنصر بالله أمير المؤمنين)[٣].

أعطيات الخلفاء لولاة مكة المكرمة:

عندما استقرت السلطة فى مكة للدولة الاسلامية الجديدة فى العام الثامن الهجرى، أخذت على عاتقها مسئولية امداد الحجاج بالأطعمة فنجد الرسول صلى

---

(١) ابراهيم رفعت: مرآة الحرمين، جـ ١، ص ٢١٥.

(٢) لم يذكر النقش اسم أتابك اربل وواضح أن المقصود هو مظفر الدين كوكبرى بن على الدين ورد اسمه فى النقش السابق، والذى امتد حكمه حتى سنة ٦٣٠هـ.

- انظر: أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدولة الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة، جـ ٢، ص ٣٤٩.

وأيضا: عصام الدين عبدالرؤوف: فى بلاد الجزيرة، ص ٤٠، ٤١.

(٣) ابراهيم رفعت: مرآة الحرمين، جـ ١، ص ٢١٥.

الله عليه وسلم، يرسل المال إلى أبى بكر الصديق حينما ولاه أميرا للحج فى السنة التاسعة من الهجرة ليوزع على مسلمى هذا الموسم الطعام[1].

وفى هذا التدبير الذى مارسه المسلمون للمرة الأولى بعد سيطرتهم اداريا على مكة التزام برعاية الجانب الاقتصادى وتوفير الأمن الغذائى فيما رصده الرسول صلى الله عليه وسلم، لإطعام الحجاج، كما يتمثل هذا الجانب فيما وعد الله عز وجل المؤمنين من تعويض ما ينجم عن انقطاع المشركين عن الموسم كما جاء فى قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا، وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء إن الله عليم حكيم)[2].

وهكذا تتضح معالم تنظيم المواسم من بعد حيث كانت تترابط المواقف إدارية وسياسية واقتصادية، وتنعكس ايجابا وسلبا على حالة الموسم.

وقد أصبح إعداد الطعام للحجاج كل عام فى يوم عرفة تقليدا اسلاميا جرى العرف به من قبل الخلفاء والولاة وأمراء الحج على مدى العصور الإسلامية[3].

واذا تتبعنا الأحداث سنجد توفير الطعام للحجاج فى المشاعر مرتبطا بالاستقرار الادارى والسياسى فى كل موسم ومدى ما تستطيع السلطات توفيره للحجاج من أطعمة وغيرها.

فقد ظل هذا الاستقرار أيام الخلفاء الراشدين، لم يضطرب حتى عندما كان هناك أميران للحج من قبل على ـ كرم الله وجهه ـ وآخر من قبل معاوية لأن قداسة المشاعر وقوة الإيمان قد حجبت سلبيات هذا الخلاف من أن يترتب عليها احصار للحجاج، وتضييق عليهم فى أقواتهم[4].

---

(١) الجزيرى: درر الفوائد، ص ١٩٠، ص ١٩١.

(٢) سورة التوبة: الآية ٢٨.

(٣) الجزيرى: درر الفوائد، ص ١٩٦.

(٤) الفاسى: شفاء الغرام، جـ٢، ص ١٩٠.

وفى سنة ٦٣هـ حينما سيطر عبدالله بن الزبير على الحجاز خرج ركب الحج الى عرفة تحت رايته، وتولى هو خطبة يوم عرفة وفى السنة التالية لها، وقف بعرفة أربعة ألوية، لواء يقوده عبدالله بن الزبير، ولواء للخوارج بقيادة على بن عامر الخارجى، ولواء الشيعة وكان يقوده محمد بن الحنفية ولواء لأهل الشام، وكان يقوده بعض من بنى أمية، ويقال أنه أقيمت فى يوم عرفة أربع خطب. ورغم هذا التنافر بين تلك الألوية فلم تقع أية اعتداءات على الحجاج[1].

وعلى أثر وفاة يزيد بن معاوية، استتب الأمر لعبدالله بن الزبير، الذى كان يقود الحج تحت لوائه حتى سنة ٧٢هـ . ولما صار الأمر لعبدالملك بن مروان ولى الحجاج بن يوسف الثقفى امارة الحج، وبعثه فى جيش كثيف لقتال ابن الزبير بعد قضاء موسم الحج[2].

وبعد ذلك العام لم تقع حوادث يمكن أن تذكرها المصادر فى المواسم التالية طوال فترة حكم بنى أمية، حيث تجمعت كلمة المسلمين تحت لواء بنى أمية فى جميع مواسم الحج حتى سنة ١٣١هـ[3].

ولعل اختفاء الحوادث فى موسم الحج حتى سنة ١٣١هـ يعود إلى الطمأنينة السياسية التى أوجدها الخلفاء الأمويون وذلك بتعيينهم أعضاء ينتمون إلى البيت الأموى فى ولاية مكة وامارة الحج[4].

ومنذ بداية الخلافة العباسية سنة ١٣٢هـ حتى سنة ٢٥٠هـ ، لم تحدث أية أزمات فى موسم الحج سواء من الناحية الادارية والسياسية والاقتصادية[5].

وفى سنة ٢٥١هـ خرج على الدولة العباسية اسماعيل بن يوسف بن ابراهيم الجون

---

(١) الجزيرى: درر الفوائد، ص ١٩٧.

(٢) المصدر السابق، ص ١٩٩.

(٣) الجزيرى: درر الفوائد، ص ٢٠١.

(٤) الجزيرى: درر الفوائد، ص ٢٠٨.

(٥) المصدر السابق: ص ٢٠٩.

ابن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب العلوى، فحدثت معركة يوم عرفة، بينه وبين أمير الحج المعين من قبل الخليفة العباسى المستعين بالله، نتج عنها عدم وقوف الحجاج بعرفة ليلا أو نهارا، غير أن الأقوات لم تتأثر بهذا الحادث، لأنه وقع بعد وصول كل القوافل إلى مكة[1]. ومن الجدير بنا أن نشير إلى ضعف الخلافة العباسية تعددت الجهات التى تتنازع السيطرة على موسم الحج، وكثيرا ما وقع القتال بينهما فى الحرم أو فى مشاعر الحج.

ففى عام ٢٦٩هـ وقع قتال بين أصحاب ابن طولون (الركب المصرى) وبين ركب الحجاج العراقيين أصحاب الموفق أحمد، وكان الظفر لأصحاب الموفق أحمد[2]. ويقول الفاسى أن والى مكة منع حجاج مصر من شرب الماء. إلى أن تدخل أمير الركب الشامى واستطاع أن يصلح بينهم[3].

وفى عام ٢٩٥هـ وقع قتال فى أيام التشريق بمنى بين عج بن حاج والى مكة وبين الأجناد لأنهم طالبوا بجائزة بيعة الخليفة المقتدر على أثر وفاة المكتفى، فقتل عدد كبير منهم[4].

وفى عام ١٣٠١هـ استقل محمد بن سليمان العلوى بمكة، منتهزا فرصة انشغال الخلافة العباسية بالفتن[5]. وخطب لنفسه فى موسم الحج فقال: (الحمد لله الذى أبرز زهرة الايمان من اكرامه، وكمل دعوة خير الرسل باسباطه لابنى اعمامه) ولم تكن دولة السليمانيين، التى أنشأها من القوة بحيث تحقق الأمن للحجاج، كما لم تعرف المدة التى حكم خلالها محمد بن سليمان، وربما كانت تتراوح بين عامين أو أربعة أعوام[6].

---

(١) السباعى: تاريخ مكة، جـ ١، ص ٤٦.
(٢) المرجع السابق، جـ ١، ص ٤٨.
(٣) الفاسى: شفاء الغرام، جـ ٢، ص ١٧٤.
(٤) الفاسى: شفاء الغرام، جـ ٢، ص ١٧٥.
(٥) حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام السياسى، جـ ٣، ص ٢١، ٢٢.
(٦) ابن خلدون: العبر، جـ ٤، ص ٩٩.

وفى سنة ٣١٧هـ حدثت غارة القرامطة على مكة والتى نزعوا فيها الحجر الأسود وانتهكوا حرمات البيت الحرام، مما أفزع الحجاج وأثر على الحركة داخل مكة وفى طرق الحج[1].

وفى سنة ٣٢٧هـ أعيدت ولاية مكة إلى طاعة الخليفة العباسى وأصبح والى مكة يعين من قبل الخليفة العباسى، وقد استطاع الخليفة العباسى الراضى أن يستعيد النفوذ والخطبة باسمه فى مكة وانحسر نفود القرامطة عن المناسك وطرقها وأسندت ولاية الحجاز (مكة والمدينة) إلى محمد بن طنج الاخشيدى حاكم مصر[2]، الذى افتخر بولايته على الأراضى المقدسة فى كتابه لامبراطور الروم[3].

ومنذ سنة ٣٣٧هـ أصبحت السلطة فى بغداد لبنى بويه، فعملوا على أن يزيحوا نفوذ الأخشيديين عن الأراضى المقدسة. وقد أدى ذلك الى قيام الصراع بينهما على بسط النفوذ على الأراضى المقدسة والاستئثار بالخطبة. وكان الاخشيديون من جانبم يغدقون الأعطيات على سكان الحرمين من أجل الدعاء لهم على المنابر، مع بقاء اسم الخليفة العباسى[4].

وفى سنة ٣٤٢هـ وقع قتال شديد بين أمير الركب العراقى وأمير الركب المصرى لأن أمير الركب العراقى كان يريد ذكر اسم الأمير البويهى فى الخطبة، وقد ظفر العراقيون وأقاموا الخطبة لمعز الدولة بن بويه[5].

---

(١) الفاسى: شفاء الغرام، جـ٢، ص ١٧٦

- محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص ٢٠.

(٢) ابن خلدون: العبر، جـ٤، ص ١٠٠.

- سيدة اسماعيل كاشف: مصر فى عصر الأخشيديين، ص ١٥٢، ١٥٣.

(٣) محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص ٢٠.

- سيدة اسماعيل كاشف: مصر فى عصر الأخشيديين، ص ١٥٥.

- السباعى: تاريخ مكة، جـ١، ص ٦٧.

(٤) سيدة اسماعيل كاشف: مصر فى عصر الأخشيديين، ص ١٥٦.

(٥) الجزيرى: درر الفوائد، ص ٢٤٣.

- محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص ٢١.

وفى السنة التالية استجد القتال بين أمير الركب العراقى وأمير الركب المصرى، وانتصر فيه العراقيون وأقاموا الخطبة لمعز الدولة ولركن الدولة[1].

وفى سنة ٣٤٤هـ اتفق أمير الحج المصرى، وأمير الحج العراقى على أن تقام الخطبة باسم الخليفة العباسى وعلى ألا يذكر فيها اسم الأمير البويهى ولا اسم الأمير الأخشيدى، وبذلك انتهى التنفس بين البيت البويهى والبيت الأخشيدى، ولم تذكر المصادر وقوع صراع بينهما بعد ذلك.

وظل العباسيون يتمتعون بالسيادة على مكة والمدينة، ولا ينازعهم فيها منازع، حتى أقام الفاطميون خلافتهم، وبدأوا يتوسعون فى رقعة دولتهم، وباستيلائهم على مصر، بدأ الصراع بينهم وبين العباسيين من أجل السيطرة على الحجاز، وكان من مظاهر ذلك التنازع على الخطبة كل يريد أن تكون الخطبة باسم الخليفة التابع له. وكانت الأعطيات التى لها دور كبير فى رواج الموسم تتأرجح قلة وكثرة على حسب الموقف السياسى والاقتصادى قوة وضعفا فى الدولتين[2]. فنجد أمراء مكة يميلون هنا مرة وهناك أخرى، إذ أن تعدد السلطة المركزية على العالم الإسلامى كان يجعل الأمن مضطربا، والالتزام بالاعطيات واطعام الحجاج، وحمل الأقوات خاضعا للظروف التى تمر بها الدولتان.

وكان اهتمام الفاطميين ببلاد الحجاز قد بدأ منذ خلافة المعز لدين الله الفاطمى، حيث تدخل فى النزاع الذى حدث بين بنى الحسن وبين بنى جعفر بن أبى طالب، وحسم الخلاف بينهما، اذ أرسل إليهم مالا ورجالا توسطوا بينهم وعقدوا معهم الصلح فى الحرم، كما قام رسل الخليفة الفاطمى بأداء دية قتلى بنى الحسن سنة ٣٤٨هـ[3].

وكان لهذا الصنيع أثره، اذ أنه حين استتب الأمر للحسن بن جعفر الحسنى فى مكة سنة ٣٥٨هـ وأعلن قيام حكم الأشراف الحسنيين من أسرة الموسويون بادر

(١) الجزيرى: درر الفوائد، ص ٢٤٤.

(٢) السباعى: تاريخ مكة، جـ ١، ص ١٢١.

(٣) محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص ٢٣.

بالدعوة للمعز لدين الله الفاطمى على منابر مكة، فبعث إليه المعز من المغرب بتقليد الحرم واعماله، وبذلك حذف اسم الخليفة العباسى من الخطبة فى مكة[1].

وفى سنة ٣٥٩هـ توقفت أعطيات الدولة العباسية، وبدأ الخليفة الفاطمى بإرسال أعطياته، كما قال المقريزى: (عسكرا وأحمال مال عدتها عشرون حملا للحرمين وعدة أحمال متاع)[2]. وأصبحت الخطبة فى مكة وفى يوم عرفة تقام باسم الخليفة المعز لدين الله الفاطمى. وقد ظلت تبعية الحجاز للخليفة المعز لدين الله حتى توفى سنة ٣٦٥هـ. وخلفه ابنه العزيز الذى انقطعت الخطبة عن اسمه عامين، حيث كانت باسم الخليفة العباسى[3].

وفى سنة ٣٦٦هـ حجت جميلة بنت ناصر الدولة الحمدانية صاحب الموصل وأغدقت الأعطيات على الحجاج وعلى سكان مكة، كما أنها نثرت عليهم دنانير الذهب فى جبل عرفات، وعند جمرة العقبة الكبرى فى منى، كما يقال بأنها سقت الناس فى مشاعر الحج الماء بالثلج وذلك لشدة الحرارة[4].

وفى السنة التالية بعث الخليفة الفاطمى العزيز ادريس بن زيرى الصنهاجى أميرا على ركب الحاج المصرى، فاستولى على الحرمين وأقام له الخطبة، الا أن النفوذ الفاطمى رغم ذلك لم يكن مستقرا فى مكة طوال عهد العزيز واضطر العزيز فى سنة ٣٨٠هـ إلى ارسال حملة عسكرية الى بلاد الحجاز ضيقت الحصار على أهلها، وانتهت باعادة الخطبة على منابر مكة للخليفة الفاطمى بدلا من الخليفة العباسى[5].

وظل أمراء مكة بعد هذه السنة يقيمون الخطبة للخليفة الفاطمى، ولما توفى أمير مكة عيسى بن جعفر فى سنة ٣٨٤هـ خلف أخوه أبوالفتوح الذى بدأ عهده باخلاصه

(١) محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص ٢٤.

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص ١٧٢.

(٣) الجزيرى: درر الفوائد، ص ٢٤٦.

ـ محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص ٢٤.

(٤) الجزيرى: درر الفوائد، ص ٢٤٧.

(٥) محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص ٢٥.

للفاطميين، فأقام الخطبة باسم الخليفة الفاطمى. ولكن الخليفة العباسى القادر بالله أغراه بالمال من أجل اعادة الخطبة باسمه، غير أنه رفض ذلك وبعث اليه بأن الخطبة للخليفة الحاكم بأمر الله دون سواه[1].

واستطاع أبو الفتوح أن يستعيد سيادة الفاطميين على المدينة، وسوف نتكلم عن ذلك فى الفصل الرابع من هذا البحث.

وما لبث أبو الفتوح أن خرج عن طاعة الخليفة الفاطمى سنة ٤٠٠هـ، بعد أن أغراه الوزير أبوالقاسم حسين بن على بن المغربى بأن ينتحل لقب الخلافة وأغراه بالثورة على الفاطميين وانتزاع الخلافة منهم فأخذ أبوالفتوح البيعة لنفسه من بعض القبائل، مثل بنى سليم، وبنى هلال، وبنى عوف، وبنى عامر، ثم ما لبث أن شد رحاله فى قوة عسكرة يريد الشام وانتهى به المطاف الى منازل آل الجراح فى الرملة، واتحد مع خسان بن مفرج بن الجراح، فبايعه آل الجراح، وأقيمت الخطبة فى منازلهم باسمه وفى كثير من مدن الشام[2].

وتوافدت الأخبار الى مسامع الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى بخروج أبوالفتوح عليه، وانتحاله لقب الخلافة، وانحياز حسان بن مفرح بن الجراح، والوزير أبى قاسم عليه فغضب من ذلك وأمر بعزله وتوليه عمه أبى الطيب بن داود مكانه، ولكن أباالفتوح فطن إلى أن آل الجراح قد بدأوا يتخلون عنه مما جعله يعيد النظر فيما حدث، فالتجأ إلى مفرح والد حسان رأس المتخلين عنه، وأعلن التجاءه اليه فأكبر مفرح ذلك، وأخذ على عاتقه تسوية الأمور فتوسط بينه وبين الخليفة الفاطمى بالصلح على أن يتنازل عن دعوته بالخلافة، لقاء اخلاء مكة من خصومه وأن يعود إلى حكم مكة كما كان يحكمها من قبل[3]. وهكذا عاد إلى مكة سنة ٤٠٣هـ واستتب له الأمر فيها وشرع يدعو للحاكم بأمر الله الفاطمى كما نقش اسمه على النقود[4].

---

(١) محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجيه ص ٢٥.

- السباعى: تاريخ مكة، جـ ١، ص ١٧٣.

(٢) محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص ٢٥.

(٣) المرجع السابق: ص ٢٦، ٢٧.

(٤) السباعى: تاريخ مكة، جـ ١، ص ١٧٣.

ولم يحاول أبوالفتوح، بعد عودته إلى امارة مكة، الخروج على طاعة الفاطميين مرة أخرى بل احترم سيادتهم وأصبح يقيم الخطبة للحاكم بأمر الله.

ولما توفى خطب لابنه الظاهر، كما خطب من بعده للمستنصر سنة ٤٢٧هـ ، وظل أبوالفتوح مواليا للفاطميين، حتى توفى سنة ٤٣٠هـ وخلفه من بعده ابنه شكر الذى استطاع أن يبسط نفوذه على مدن الحجاز، وأقام الدعوة للمستنصر الفاطمى فى الحرمين، واستمر الحال على ذلك حتى توفى سنة ٤٥٣هـ[1].

ولم ينجب شكر بن أبى الفتوح الحسنى أولادا يتولون امارة مكة من بعده. وبوفاته انتهى أمر مكة من بعده إلى عبد له لم يذكر المؤرخون اسمه[2].

ولعل من الغرابة أن يتولى أمر مكة أحد العبيد، وفيها من السادة العلويين والأشراف وأعيان الأهالى والمجاورين، ولكن الذى يبدو من ثنايا الحوادث أن الأشراف فى مكة كانوا منقسمين على أنفسهم، وأن أشراف كل أسرة كانوا يتحصنون فيما بينهم وبذلك ضاعت فرص التلاقى فى جبهة موحدة. ولعل عبدالأمير شكر كانت له قوة ساعدته على تولى امارة مكة واغتنام هذه الفرص، وكيفما كان الأمر فلم يدم حكمه مدة طويلة فى مكة، لأن الأشراف لم يلبثوا أن قبضوا على زمام الأمر، بعد أن أبعدوه عن الحكم، كما أبعدوا الأشراف من أسرة الموسويين[3]. وبذلك بدأ حكم أسرة الهواشم، إذ تقلد امارة مكة أبوهاشم محمد بن جعفر بن محمد بن عبدالله بن أبى هاشم الذى عظم ذكره بين قومه ٤٥٤هـ ، وكان أول عمل استفتح به حكمه اقامة الخطبة للخليفة المستنصر بالله الفاطمى[4].

ولكنه لم يحتفظ بسيادة الفاطميين على مكة، اذ ما لبث أن انحرف عن الخليفة

---

(١) الفاسى: شفاء الغرام، جـ ٢، ص ١٧٩.
ـ السباعى: تاريخ مكة، جـ ١، ص ١٧٤.

(٢) المرجع السابق، جـ ١، ص ١٧٥.

(٣) الفاسى: شفاء الغرام، جـ ٢، ص ١٩٤.

(٤) محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص ٢٧.
ـ أحمد دراج: ايضاحات جديدة عن تحول فى تجارة البحر الأحمر ص ١٩٥.

الفاطمى بسبب نقص الأعطيات التى كانت تصله منه ويبدو أن الخليفة القائم بأمر الله العباسى نجح فى أن يستميله اليه بزيادة الأعطيات له، فأقام الخطبة له بدلا من الخليفة الفاطمى المستنصر بالله[1].

ولما علم الخليفة المستنصر الفاطمى بذلك عهد فى سنة ٤٥٥هـ الى على ابن محمد الصليحى داعية اليمن بارسال حملة إلى مكة، لاستعادة نفوذه عليها، والقضاء على الدعوة العباسية فيها، وبدأ الصليحى يستميل أهل مكة باغداق الأعطيات عليهم، كما أحسن معاملتهم، وكسى الكعبة ثيابا بينا، ونجح آخر الأمر فى القضاء على أسرات الأشراف. إلا أن الأشراف أخذوا يتقربون اليه ويراسلونه أملا فى عودتهم الى ولاية مكة.[2]

ولكن محمد بن جعفر استطاع أن يظهر تعاونا كبيرا معه بنشر الأمن مما جعله يسند اليه امارة مكة ويفضله على باقى الأشراف .

وبعودة الصليحى الى اليمن بقى زمام الأمور فى مكة المكرمة بيد أبى هاشم محمد بن جعفر الذى بدوره أعاد النفوذ الفاطمى الى مكة[4].

وفى سنة ٤٥٧هـ بدأ النزاع فيما بين الأشراف الحسنيين أنفسهم إذ خرج حمزة بن وهاس على والى مكة، محمد بن جعفر واستطاع أن ينتزع منه امارة مكة. فأخذ محمد بن جعفر يستعد لمحاربة بنى عمومته الذين انتزعوا السلطة منه مستنصرا ببعض القبائل التى تقيم فى طريق الحج[5].

---

(١) الفاسى: شفاء الغرام، جـ ٢، ص ١٩٦.
ـ محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص ٢٨.

(٢) المقريزى: الذهب المسبوك، ص٦٦.
ـ محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص ٢٨.

(٣) السباعى: تاريخ مكة، جـ ١، ص ١٨٣.

(٤) السباعى: تاريخ مكة، جـ ١، ص ١٨٥.

(٥) المرجع السابق، جـ ١، ص ١٨٦.

وما أن حل عام ٤٥٨هـ حتى استطاع محمد بن جعفر القضاء على حمزة بن وهاس[١]، وأخرجه من مكة مع مناصريه من الحسنيين ويقال أنه أخرجهم من الحجاز. وبذلك تمت عودة محمد بن جعفر الى امارة مكة[٢].

وفى سنة ٤٦١هـ تأثرت السيادة الفاطمية على مكة بسبب الشدة العظمى التى أصابت مصر فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى وأدت إلى انقطاع الأموال التى كانت ترد إلى محمد بن جعفر من مصر، مما دفع محمد ابن جعفر لأخذ قناديل الكعبة وأستارها وصفائح بابها كما صادر أموال أهل مكة، لينفقها على شؤون امارته. وأمر بحذف اسم الخليفة الفاطمى من الخطبة، وخطب باسم الخليفة العباسى القائم بأمر الله، وأرسل فى سنة ٤٦٢هـ إلى السلطان الب أرسلان السلجوقى يخبره بذلك[٣]. وقد نال هذا العمل رضاء السلطان الب أرسلان السلجوقى الذى أرسل إليه ثلاثين ألف دينار وخلع وطلب منه أن يلغى آذان الفاطميين (حى على خير العمل)[٤]. غير أن أبا المحاسن يذكر أن أمير مكة رغم اقامة الخطبة للخليفة العباسى، الا أنه قد أبقى الأذان (بحى على خير العمل). ونستدل من ذلك على بقاء علاقته بالفاطميين، وأنه عندما مات القائم بأمر الله العباسى وانقطعت أعطيات العباسيين له أعاد الخطبة للخليفة المستنصر بالله الفاطمى سنة ٤٦٧هـ[٥]. ويمكن القول أن ولاءه لاحدى الخلافتين، العباسية والفاطمية كان يتلون حسب مقدار ما يصله من كل منهما من أعطيات[٦].

وعلى الرغم من استمرار مقاليد أمور مكة فى يد محمد بن جعفر، الا أن سيرته لم تكن مشكورة. ففى سنة ٤٨٠هـ قام الأعراب بنهب الحجاج، إلا أنه لم يعمل على

---

(١) الفاسى: شفاء الغرام، جـ٢، ص١٩٧.
(٢) محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص ٢٩.
(٣) المصدر السابق، ص ٢٩.
(٤) الفاسى: شفاء الغرام، جـ ٢، ص ١٩٨.
(٥) أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، جـ ٥، ص ٨٩.
(٦) المصدر السابق، جـ ٥، ص ١١٠.

كف نهب الأعراب للحجاج والتصدى لهم، كما أنه لم يقم بتنظيم الأمور الإدارية والاقتصادية فى مكة واقرار الأمن بها(١). وعلى الرغم من أن سيل الأعطيات كان ينهال عليه مرة من الخليفة العباسى، وأخرى من الخليفة الفاطمى، الا أن الحجاج فى نهاية عهده كانوا غير آمنين على أنفسهم(٢).

هذا ونلاحظ أن العباسيين كانوا أوفر حظا من الخلفاء الفاطميين من حيث تبعية محمد بن جعفر لهم، وبالتالى كانت مدة سيادتهم على مكة فى عهده أطول من مدة سيادة الفاطميين الذين شغلوا بالعمل على تثبيت سلطتهم فى مصر(٣).

وعلى أثر وفاة محمد بن جعفر سنة ٤٨٧هـ، خلفه ابنه قاسم الذى سار على نهج أبيه، فأقام الخطبة للعباسيين، مما جعل خلفاء الدولة العباسية يواصلون إرسال أعطياتهم له. فأرسل اليه الخليفة المستظهر أموالا وخلعا، كا واصل ابنه المسترشد ارسال الأعطيات له. غير أن امارة مكة فى عهده لم تنعم بالاستقرار، إذ كثرت الفتن فيها، ولم يستطع هو أن يقر الأمن بها أو أن يعمل على إصلاح الأمور فى مكة(٤).

ولما توفى قاسم بن محمد بن جعفر سنة ٥١٨هـ ولى ابنه فليتة امارة مكة. وبدأ فليتة عهده باقامة الخطبة للخليفة العباسى المسترشد، وعمل على نشر الأمن فى مكة، مما كان له أثر فى نفوس سكان مكة والحجاج معا إذ تمتعوا فى عهده بالرخاء والطمأنينة والأمن. كما أنه حرص على اظهار ولائه للخليفة العباسى المسترشد حتى وفاته فى سنة ٥٢٧هـ. غير أن ابنه هاشم الذى خلفه فى امارة مكة لم يستمر فى ولائه للخليفة العباسى المسترشد فقد أعاد الخطبة للخليفة الفاطمى الحافظ(٥).

وهكذا نجد أن السمة العامة للعلاقات بين أشراف مكة والخلافتين العباسية والفاطمية هى التأرجح فى التبعية لهما على حسب الأعطيات ووفرتها. وإن كان أمراء

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٤٥.

(٢) المصدر السابق، جـ ٢٠، ص ٥٣.

(٣) محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص ٣١.

(٤) السباعى: تاريخ مكة، جـ ١، ص ١٨٧.

(٥) محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص ٣٢.

مكة لم يقطعوا حبل المودة مع الفاطميين حتى يكسبوا من وراء ذلك اغداق الأعطيات عليهم[1]. ومن دلائل ذلك السفارات، التى قام بها الشاعر عمارة اليمنى، بين أمير مكة والخليفة الفاطمى سنة ٥٥٠هـ[2].

كل هذا يوضح أثر الأعطيات وانعكاسها على العلاقات السياسية بين أشراف مكة وكل من الخلفاء العباسيين والفاطميين، ويوضح أن هذه الأعطيات كانت تتأثر بالأحوال الاقتصادية فى كل من الدولتين العباسية والفاطمية[3].

وقد ظلت الخطبة تقام فى مكة للخليفة العباسى المستنجد بالله حتى توفى الأمير قاسم بن هاشم سنة ٥٥٦هـ[4]. وفى هذه الفترة كان النفوذ الفاطمى فى مصر بدأ يضعف مما شجع الأمير عيسى بن فليتة الذى خلف الأمير قاسم فى الامارة على الاستمرار فى اقامة الخطبة للخليفة العباسى. ولكن على الرغم من أن أمراء مكة أقاموا فى فترات مختلفة الدعوة لبنى العباس، إلا أنهم لم يقفوا ضد الخلافة الفاطمية، وحرصوا على إظهار ولائهم لها، وذلك بابقائهم الأذان (بحى على خير العمل) وهذا يعود إلى أن الخلفاء الفاطميين كانوا يبذلون قصارى جهدهم فى استمرار علاقاتهم الطيبة بأمراء مكة وذلك باغداق الأعطيات عليهم وارسال الحبوب والأموال إلى فقراء الحرمين[5].

وعلى الرغم من تنافس الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية على بسط النفوذ على الأراضى المقدسة، الا أن هذا التنافس لم يأخذ طابع العنف. وذلك رغبة من الخلافتين فى عدم جعل الأراضى المقدسة ميدانا للقتال[6].

وقد كان غرض الخلفاء الفاطميين من بسط نفوذها على الأراضى المقدسة، هو

---

(١) محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص ٣٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٣.

(٣) السباعى: تاريخ مكة، جـ ١، ص ١٩٠.

(٤) الفاسى: شفاء الغرام، جـ ٢، ص ٢٠٠.

(٥) حسن ابراهيم حسن: الفاطميون فى مصر، ص ١٧٤.

(٦) السباعى: تاريخ مكة، ص ١٩١.

كسب احترام واجلال العالم الاسلامى، الذى كان يقدم كل الاحترام والاجلال للخلافة التى تبسط نفوذها وحمايتها على الأراضى المقدسة[1]. وقد استطاع الفاطميون كسب احترام العالم الإسلامى، رغم ما عانوه من منافسة العباسيين لهم، بعد أن استطاعوا أن يصدوا القرامطة عن مكة، وأن يوجهوا اهتمامهم إلى العمل على حماية الأراضى المقدسة، وتأمين الأمن للوافدين اليها على أرواحهم وأموالهم[2].

ونرى أيضا أن أمراء مكة والمدينة، رغم سيل الأعطيات التى كانت تصلهم لم يقوموا باصلاحات تذكر، لأنهم كانوا يؤثرون مصلحتهم الذاتية، ويقدمونها فوق كل مصلحة، ولم يكونوا يقيمون الخطبة للخلفاء العباسيين أو الفاطميين الا من أجل اشباع مطامعهم وليواصل هؤلاء واولئك امدادهم بالأموال، فأدى ذلك إلى اضعاف شأن بلادهم وتأخيرها ماديا وعلميا[3] فقد زار المقدسى بلاد الحجاز فى القرن الرابع الهجرى، ووصفها بالفقر وقلة التعليم[4].

وما أن حل عام ٥٦٨هـ ، عام سقوط الخلافة الفاطمية حتى انقطع رافد هام من روافد هذه الأعطيات، كما قلت أعطيات الخلافة العباسية[5]. مما دفع أمراء الركبان إلى اطعام حجاجهم بأنفسهم بتقديم الأطعمة لهم فى مشاعر الحج، وقد استمر الحال على هذا المنوال حتى سنة ٥٧٠هـ ، وهو العام الذى أعاد فيه صلاح الدين الأيوبى ما كان قد انقطع من الأعطيات التى كانت تفد الى مكة.

وفى سنة ٥٧٠هـ توفى الأمير عيسى بن فليتة وخلفه فى الامارة داود. غير أن امارة داود لم تطل أكثر من نصف يوم، لأن الخليفة العباسى المستضىء بالله حرض عليه أخاه مكثر الذى استطاع انتزاع امارة مكة منه بتقليد من الخليفة العباسى[6]. وهذا

(١) محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميون الخارجية، ص ٣٤.
(٢) الفاسى: شفاء الغرام، جـ ٢، ص ٢٠١.
(٣) محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص ٣٤.
(٤) المقدسى: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ص ١٠٣.
(٥) الفاسى: شفاء الغرام، جـ ٢، ص ٢٠٣.
(٦) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٢٠٥.

يذكر لنا الغسانى صاحب كتاب المسجد السبوك أن امارة مكة ظلت بيد مكثر تارة، وأخيه داود تارة أخرى حتى وفاة داود سنة ٥٨٩هـ[١].

وتجدر بنا الاشارة إلى أن الخليفة العباسى لم يغير نظام ولاية مكة وينتزعها من أسرة الأشراف الحسنية لأنه كان يطمع فى اصلاح أنفسهم بتحريض الأمير مكثر الذى وجد فيه العدل والاستقامة فولاه امارة مكة. وبدأ الأمير مكثر عهده بالولاء التام للخليفة العباسى وللسلطان صلاح الدين اذ أمره السلطان صلاح الدين باسقاط المكوس عن الحجاج الذين يدخلون مكة. وكانت العادة قد جرت أن يؤخذ على كل حاج سبعة دنانير ونصف، ومن دخل من الحجاج ولم يدفع المكس حبس حتى يفوته الوقوف بعرفة ولو كان فقيرا[٢]. ومقابل اسقاط المكوس عن الحجاج قام صلاح الدين بتعويض أمير مكة بأن أرسل الأموال والحبوب له وكانت جملتها ثمانية آلاف أردب من القمح تحمل سنويا إلى جدة، وأوقف على ذلك أوقافا بصعيد مصر، بالإضافة إلى إرسال الأقوات للمجاورين والفقراء فى الحرمين الشريفين[٣]. كما كان يرسل له كل عام مالا خاصا من أجل عمل الأطعمة فى يوم عرفة[٤].

ونستدل مما كتبه ابن جبير والفاسى أن المكوس التى كانت تؤخذ من الحجاج كانت تعد المورد الأساسى لامارة مكة، ولذلك لم يكن بد من تحصيلها ولو بالعنف. وهكذا لم يستطع أمراء مكة التنازل عن تلك المكوس إلا عندما ضمن صلاح الدين لهم التعويض عنها بالأموال والسلع[٥].

وقد حرص الأيوبيون السنيون على نشر المذهب السنى فى أرجاء دولتهم فأبطل

---

(١) الغسانى: العسجد السبوك، جـ٢، ص ٢٢٦ تحقيق شاكر عبدالمنعم، دار البيان، بغداد، ١٩٧٥م.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص ٥٥.

ـ الفاسى: شفاء الغرام، جـ٢، ص ٢٠٨.

(٣) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٧، ص ١٠٩، ١١٠.

(٤) الفاسى: شفاء الغرام، جـ٢، ص ٢٠٩.

ـ الغسانى: العسجد السبوك، جـ٢، ص ٢٢٧.

(٥) ابن جبير: الرحلة، ص ٥٨.

ـ الفاسى: شفاء الغرام، جـ٢، ص ٢١٢.

داود سيف الإسلام طغتكين بن أيوب الأذان (بحى على خير العمل) فى مكة مما دفع المؤرخون إلى القول بأنه قد ولى مكة. والحقيقة أن هذا العمل كان من جملة الأعمال التى قام بها صلاح الدين للقضاء على المذهب الشيعى فى جميع أرجاء دولته(١). كما أن صلاح الدين بتعويضه أمير مكة عن اسقاط المكوس يكون قد قام بأهم عمل من أجل استتباب أمن الحج على وجه العموم دون أن يتدخل تدخلا مباشرا فى شؤون الامارة الداخلية لمكة(٢).

وبعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ قسمت المملكة بين أولاده وأخيه العادل، وبـدأ عهد جديد فى العلاقات بين مصر الأيوبية والحجاز، اذ تدخل الأيوبيون فى الشؤون الداخلية لامارة مكة والمدينة(٣).

فشعـر مكثر بحاجة إلى تثبيت مركزه ليتحاشى استبداد الخلافة العباسية، فبدأ بتكـوين جيش نظامى وأخـذ يشـترى الأسلحـة، كما أخذ يبنى القلاع لتكون له حصونا. ولكنه مع ذلك لم يخرج على طاعة العباسيين والأيوبيين(٤).

غير أن مكثر ما لبث أن عاد إلى سوء معاملة الرعية وفرض على الحجاج المكوس وعمل التحصينات فى مكة مما دفع الخليفة العباسى إلى التفكير فى القضاء عليه(٥).

فكلف الخليفة العباسى طغتكين أخا صلاح الدين بامارة الحج وكلفه بالقضاء على

---

(١) الفاسى: شفاء الغرام، جـ ٢، ص ٢١٣.
- أبوشامة: الروضتين، جـ ٢، ص ١٢٣.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ ٨، ص ٢٧٠.
ويعتقد البعض أن عدم تدخل صلاح الدين فى الشؤون الداخلية لامارة مكة انما يرجع الى انشغاله بمحاربة الصليبيين فى الشام. انظر:
- على السليمان: العلاقات الحجازية، ص ٨.

(٣) ابن الجوزى: مرآة الزمان، جـ ٢، ص ٣٦٩.

(٤) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٥٧٨.
- الفاسى: شفاء الغرام، جـ ٢، ص ٢١٤.
- السباعى: تاريخ مكة، جـ ١، ص ٢٠٥.

(٥) الفاسى: شفاء الغرام، جـ ٢، ص ٢١٥.

مكثر بعد موسم الحج، وتحريض أخيه داود عليه، فاتحد داود مع طغتكين وتنازع الأخوان وتداول الامارة، وبعد تنقلات عدة بقيت الامارة فى مكثر حتى انتزعها منه سنة ٥٩٧هـ قتادة بن ادريس(١). وبذلك انتهت ولاية الهواشم على مكة وبدأ عهد جديد وهو عهد أبوعزيز قتادة بن ادريس الحسنى المعروف بالنابغة، وهو مؤسس أسرة الأشراف الأخيرة بمكة(٢).

ويبدو أن الخليفة العباسى لم يرغب فى قيام قتادة بحكم مكة، فلقد رتب أحد حجاج العراق على شريف من أقرباء قتادة، فى موسم سنة ٦٠٨هـ فقتله، فاتهم قتادة أمير الركب العراقى فثار الأشراف وعبيدهم على حجاج الركب العراقى، مما أدى إلى هروب أمير الركب العراقى ومعه بعض من الحجاج إلى منطقة الزاهر، فخرج وراءهم الشريف قتادة بعسكره وانهال عليهم بالضرب والقتل والنهب فالتجأ أمير الحاج العراقى إلى أمير الحاج الشامى وبهذا تدخل أمير الحج الشامى وحاول أن يهدىء الموقف. وقدم قتادة أسفه لما حدث منه وأرسل ابنه راجح إلى بغداد يعتذر للخليفة العباسى بما قام به وأعادهم الخليفة إلى مكة بمال وخلع كثيرة وقبل عذر قتادة(٣).

ولقد توفى قتادة مقتولا فى سنة ٦١٨هـ بعد أن تمكن من توسيع حدود إمارته من حدود اليمن جنوبا إلى المدينة المنورة شمالا، وفى بعض سنوات إمارته أزال المكوس عن الحجاج، بينما قام بفرضها ونهب الحجاج فى بعض السنوات الأخرى(٤). ويمكننا القول بأن هناك ظروفاً معينة غير واضحة قد أحاطت بوفاة قتادة، فلقد سبق أن أرسل الخليفة العباسى هدية إلى حسن بن قتادة مع أمير الحج العراقى اقباش الناصرى فى العام السابق لوفاة قتادة(٥).

---

(١) الفاسى: شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢١٥.

(٢) السباعى: تاريخ مكة، جـ ١، ص ٢٠٦. De Gauy : Op cit, P. 63-64.

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٢، ص ١٣٤.

- الغسانى: العسجد السبوك، جـ ٢، ص ٢٩٢، ٣٩٣.

- السباعى: تاريخ مكة، جـ ١، ص ٢٠٦.

(٤) الغسانى: العسجد السبوك، جـ ٢، ص ٣٨٩ : ٣٩١.

(٥) ابن خلدون: العبر، جـ ٥، ص ٢١١.

ونستدل مما سبق على رغبة الخليفة فى عزل قتادة تولية ابنه الحسن. ويعتقد ابن خلدون أن الذى قتل قتادة هو ابنه الحسن[1]. ولما علم أمير الحج العراقى بهذه الحادثة أيد راجحا الذى كان قد زاره بقصد الحصول على تأييده فى تولية امارة مكة بدلا من الحسن. واستطاع أمير الحج العراقى وراجح أن يكوِّنا جيشا للقضاء على الحسن، ولكن جند الحسن كانوا أقوياء استطاعوا القضاء على أمير الحج العراقى وراجح[2]. وعلى أثر ذلك أرسل الحسن إلى الخليفة العباسى يعتذر عما حدث منه ويخبره أن أمير الحج ناصر أخاه راجحا عليه فأجابه الخليفة على طلبه[3].

ويجدر بنا أن نذكر أن قتادة أدرك الموقف السياسى وخطورته عليه فأوصى أولاده وهو على فراش الموت بأن يعتذروا عن قبول أية دعوة توجه اليهم من سادة بغداد أو القاهرة، فوجودهم فى مكة هو سر قوتهم وهو الذى يدفع السادة المتنافسين إلى خطب ودهم، كما أوصاهم بأن يحرصوا دائما على اقامة علاقات المودة مع اليمن لكى يتمكنوا من حفظ التوازن بين هاتين القوتين المتنافستين. وقد أصبحت هذه الوصية بمثابة دستور لم يحد عنه أشراف بنى قتادة فى علاقاتهم مع سادة بغداد وسادة مصر[4].

ثم بدأ النزاع يدب بين راجح والحسن فى سنة ٦٢٠هـ استطاع راجح أن يقضى على إمارة أخيه الحسن بواسطة جيش الملك سعود صاحب اليمن الذى ناصر راجحا واستطاع بواسطته احتلال امارة مكة. واستمر ذلك حتى بدأ الحسن بن قتادة يتصل بالأيوبيين فى مصر مستنصرا اياهم ضد أخيه راجح، واستطاع الحسن من جانبه بعد أن استمال اليه القبائل العربية اعداد جيش من أجل القضاء على ولاية أخيه راجح

---

(١) ابن خلدون: العبر، جـ ٥ ص ٢١٣.

(٢) الفاسى: شفاء الغرام، جـ ٢، ص ٢١٧.
- ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٤، ص ١٢٢.

(٣) الفاسى: شفاء الغرام، جـ ٢، ص ٢١٨.
- السباعى: تاريخ مكة، جـ ١، ص ٢٠٧.

(٤) أبى الضياء: قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، جـ ٢، ص ١٨، تحقيق محمد على الأكوع، مطبعة السعادة، ١٩٧٧م.
- أحمد دراج: ايضاحات جديدة، ص ١٩٧.

ولكن وجود القوة العسكرية فى مكة التى أعدها والى اليمن المسعود الأيوبى أوقفت كل هذه الموجات العدائية التى قام بها الحسن ضد أخيه راجح[1]. ويمكننا القول بأن الملك المسعود والى اليمن ظل ذا شوكة قوية على إمارة مكة. وبعد وفاة الملك المسعود والى اليمن سنة ٦٢٦هـ فى مكة اضطرب أمر الحكم فى مكة إذ قام الأيوبيون فى مصر بمناوأة السيطرة اليمنية على مكة ودامت الاضطرابات بين الفريقين عدة سنوات[2].

فبعد أن علم نورالدين عمر بن على بن رسول نائب الملك المسعود على اليمن بوفاة الملك المسعود نادى بنفسه ملكا على اليمن مما جعل الملك الكامل الأيوبى يرسل جيشا من مصر بقيادة طغتكين لاجلاء اليمنيين عن مكة فقاتلهم قتالا شديدا واستطاع أن يخطب فى منابر مكة للملك الكامل الأيوبى وظل الأمر على ذلك ما يقرب من عام حيث استأنف اليمنيون هجومهم على مكة فى جيش كثيف. وكان على رأس هذا الجيش راجح بن قتادة، إذ أن رؤساء مكة حينما علموا بقدوم هذا الجيش مالوا الى راجح مما جعل طغتكين يخرج من مكة وبذلك عادت مكة الى ملك اليمن نورالدين عمر ولم تزل الهجمات مستمرة على مكة، إذ أصبحت عرضة لهجوم القوات الأيوبية من مصر واليمنيين مرة أخرى[3]. ولذلك توقفت الخدمات ما يقرب من ثمان وعشرين سنة بسبب هذه الهجمات المستمرة، وفى هذا الصدد يقول صاحب كتاب شفاء الغرام: (ان مكة قاست فى هذه الفترة من الأهوال والمصائب مالا يوفى حصره وعانت من غلاء المعيشة وقلة الأرزاق مالا يطاق)[4]. مما اضطر صاحب اليمن الملك المنصور ابن رسول أن يقود بنفسه جيش اليمن فى سنة ٦٣٧هـ، سنة ٦٣٩هـ. ويقال: إنه فى الموقعة الثانية أحرق دار الإمارة بما حوته من عتاد وسلاح، وظفر فى هذه المرة باجلاء الأيوبيين عن مكة. ولما استقر له الأمر ابطل المكوس والجبايات، ولما قدم الحسن بن على بن قتادة ولاءه إليه ولاه على مكة[5].

---

(١) الجزيرى: درر الفوائد، ص ٢٧٣. ـ أبى الضياء: قرة العيون، جـ٢، ص ٢٢.

(٢) الغسانى: العسجد السبوك، جـ٢، ص ٤٣٨، ٤٣٩.

(٣) السباعى: تاريخ مكة، جـ١، ص ٢١٤.

(٤) الفاسى: شفاء الغرام، جـ٢، ص ٢٣٧.

(٥) المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٣٨. ـ ابن الضياء: قرة العيون، جـ٢، ص ٣٧.

وعاد راجح يناصبه العداء، ولكن ابا نمى بن الحسن حينما علم بخروج راجح على والده قطع عليه الطريق واستطاع ايقاع الهزيمة به، وبعد ذلك دخل أبونمى مكة[١]. وقد جعله والده شريكا له فى الإمارة وهو أول ابتداع حدث فى الإمارة مكة. وقد أقر الملك المظفر صاحب اليمن الحسن ابن قتادة على تصرفه[٢].

وفى سنة ٦٤٨هـ قام أمير مكة بعد انتهاء الحج بمنع الناس من الخروج من مكة حيث إنه أغلق أبوابها إلا من وزن دينارا عن نفسه وعن كل جمل لديه، فأعطاه الناس ما طلب. ولقد كان مجندا للمذهب الزيدى فعين مؤذنا لهم وإماما خامسا فى الحرم يؤم الـزيدية، وجعل مقامه بين الركن اليمانى، وقيل بأنه فعل هذا تقربا من إمام الزيدية باليمن وقتذاك (المهدى لدين الله أحمد بن الحسين العلوى)[٣].

وفى سنة ٦٤٩هـ ذكر بأن الغلاء قد عظم فى مكة، وقد ارتفعت الأسعار للخبز والحنطة والماء والتمر والعسل والدهن[٤]. ومنذ هذا العام بدأت تفد إلى مكة أعطيات سلطان بنى رسول الملك المظفر بن المنصور حتى يقال إنها شملت كل بيت فى مكة، وأنه أطعم الحجاج فى يوم عرفة، كما أنه كان يرسل الغلمان من اليمن لكى يقوموا بسقـاية الحجاج فى مشاعر الحج، وبهذا انتهى الدور السياسى لكل من الأيوبيين والعباسيين فى الحج[٥].

وفى سنة ٦٥١هـ خرج جماز بن الحسن على أمير مكة الحسن بن قتادة وناصره فى ذلك الأمر أمير الركب الشامى، ولكن جمازا لم تدم إمارته سوى شهر واحد إذ خرج عليه راجح بن قتادة بعد تحالفه مع صاحب اليمن وبمناصرة القبائل العربية المجاورة

---

(١) الفاسى: شفاء الغرام، جـ٢، ص ٢٣٩.
ـ السباعى: تاريخ مكة، جـ١، ص ٢١٩.

(٢) الفاسى: شفاء الغرام، جـ٢، ص ٢٣٩.

(٣) الغسانى: العسجد السبوك، جـ٢، ص ٥٧٩.

(٤) المصدر السابق، جـ٢، ص ٥٨٣.

(٥) المقريزى: الذهب المسبوك، ص ٦٧.
ـ دخلان: خلاصة الكلام، ص ٣٠.

لمكة تم له إجلاء جماز عنها واستتب الأمر لراجح سنة ٦٥٢هـ[١].

وما أن أستقر راجح فى مكة حتى خرج عليه ابنه غانم وانتزع منه إمارة مكة، ولم يذكر المؤرخون أن قتالا وقع بينهما[٢].

وتجـدر بنا الإشارة إلى أن راجح سئم النضال ومحاربة ابنه الذى تطلع إلى الإمارة وكان عامل كبر السن له أثر فى ذلك إذ اعتزل فى داره حتى توفى. ولكن غانما لم تدم مدة امارته مما شجع أبناء عمومته من آل قتادة، وعلى رأسهم ادريس وابن عمه أبونمى على مهاجمته وانتزعوا منه الامارة سنة ٦٥٣هـ . وقد استمر الشريكان على ولاية مكة حتى سنة ٦٥٥هـ[٣]. ويقول الفاسى فى كتابه شفاء الغرام: (إن ادريس خرج من مكة لزيارة أحد أقاربه فاستغل أبونمى خروجه وأعلن نفسه أميرا على مكة وقضى على جميع الخـلافـات التى نشـأت بين أبنـاء عمـومته من الأشراف وبهذا استمر حكم أبى نمى حتى سنة ٦٥٨هـ[٤].

ونتيجة لتلك الاضطرابات والخلافات تعطلت الخدمات فى مكة منذ سنة ٦٥٢هـ حتى سنة ٦٥٥هـ فلم تظهر أية خدمات قدمت للحجاج فى فترة موسم الحج[٥]. حتى أن زيادة المكوس والجبايات قد فرضت على الحجاج والتجار[٦].

وهكذا يتضح لنا أن إمارة مكة تأرجحت فى السنوات الأخيرة بين المتنافسين مما أدى إلى اضطراب الأمن، الأمر الذى أدى الى سوء الحالة الاقتصادية، ويمكن القول أن أحداً من أمراء مكة فى هذه الفترة لم يقم بأية خدمة للحجاج.

---

(١) الفاسى: شفاء الغرام، جـ ٢، ص ٢٤٠.
- دحلان: خلاصة الكلام، ص ٣١.

(٢) السباعى: تاريخ مكة، جـ ١، ص ٢٣٤.

(٣) دحلان: خلاصة الكلام، ص ٣٣.
- السباعى: تاريخ مكة، جـ ١، ص ٢٣٥.

(٤) الفاسى: شفاء الغرام، جـ ٢، ص ٢٤٣.

(٥) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٢٤٤.

(٦) دحلان: خلاصة الكلام، ص ٣٤.
- السباعى: تاريخ مكة، جـ ١، ص ٢٣٦.

الفصـل الرابـع

خدمات الحجاج فى المدينة المنورة

١ ـ الطريق من مكة الى المدينة وتوفير المياه للحجاج.
٢ ـ توفير المياه فى المدينة المنورة:
أ ـ الآبـار.
ب ـ العيـون.
٣ ـ توفير الأطعمة للحجاج فى المدينة المنورة.
٤ ـ توفير السكن للحجاج فى المدينة فترة الزيارة:
أ ـ الـدور.
ب ـ الأربطـة.
٥ ـ أمكنة الزيارة والخدمات التى قدمت فيها.
٦ ـ أعطيات الخلفاء لولاة المدينة.

١ ـ الطريق من مكة إلى المدينة وتوفير المياه وسبل الراحة للحجاج:

ويمر الحجاج فى طريقهم من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة بخمس مراحل وهذا وصفها:

المرحلة الأولى : من مكة المكرمة إلى وادى فاطمة، ولا يرحلون منه إلى وادى عسفان الا بعد أن يتزودوا من مياهه[١].

المرحلة الثانية : من وادى فاطمة إلى عسفان، وهى على بعد مرحلتين، وبها آبار وعيون يتزودون منها بالماء مستعدين للرحيل الى خليص[٢].

المرحلة الثالثة : من عسفان إلى خليص، وهى على بعد مرحلتين ويوجد بها أسواق وعيون، فيتزودون منها بالمأكل من الأسواق والماء من العيون[٣].

المرحلة الرابعة : من خليص إلى قرية رابغ وهى على بعد ثلاث مراحل وتقع فى شمال جدة على ساحل البحر الأحمر ومنها يرحلون إلى بدر[٤].

المرحلة الخامسة : من رابغ إلى بدر وهى على بعد خمس مراحل. وتوجد بها الآبار التى يتزود منها الحجاج بالماء ثم يرحلون منها إلى محطات صغيرة لا يمكثون فيها كثيرا[٥]. وفى طريقهم يمرون ببئر خليص ثم منها إلى بئر درويش ثم إلى ذى الحليفة[٦].

ونظرا لحاجة الحجاج إلى المياه فى طريق مكة المدينة فقد حرص خلفاء الدولة

---

(١) ياقوت: معجم جـ ٥، ص ٧٩.
ـ ابن جبير : الرحلة، ص ٦٢.
ـ ابراهيم رفعت: مرآة الحرمين، جـ ٢، ص ١٩٩.

(٢) المرجع السابق، جـ ٢، ص ٢٠٠.

(٣) لبتنونى : الرحلة الحجازية، ص ١٥٩.

(٤) ابن جبير: الرحلة، ص ٦٤.

(٥) ابن جبير: الرحلة، ص ٦٥.
ـ البتنونى : الرحلة الحجازية، ص ١٦٠.

(٦) ابراهيم رفعت: مرآة الحرمين، جـ ٢، ص ١٦٠.
البتنونى : الرحلة الحجازية، جـ ٢، ص ١٦٢.

الإسلامية على توفيرها كما حرصوا على إصلاح الطريق من مكة إلى المدينة.

ففى سنة ١٨هـ أمر الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، بإصلاح الآبار فى الطريق، كما أمر بحفر بئر فى عسفان[1].

وفى سنة ٢٦هـ فى عهد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه، أصلحت بعض الآبار فى الطريق من مكة إلى المدينة[2].

وبعد أن آلت الخلافة إلى معاوية بن أبى سفيان أمر فى سنة ٤٤هـ باصلاح بعض الآبار التى تعطلت فى طريق المدينة وأمر بزيادة عدد آبار بدر والجحفة[3].

وفى سنة ٧٨هـ أمر الخليفة الأموى عبدالملك بن مروان باصلاح الآبار التى تعطلت فى الطريق من مكة إلى المدينة وأمر بحفر آبار أخرى[4].

وفى سنة ٨٧هـ أثناء خلافة الوليد بن عبدالملك أصلحت عين خليص وزال عنها الخراب الذى تعرضت له وكان سببه السيول التى داهمت هذه العين وخربتها[5].

وفى سنة ١٣٣هـ أمر أبو العباس السفاح واليه على مكة والمدينة بأن يقوم بزيادة عدد الآبار التى تقع فى الطريق من مكة إلى المدينة لكى لا يجد الحجاج صعوبة فى حصولهم على الماء. كما أمر بوضع الاشارات فى الطريق لكى ترشد الحجاج لمعرفة الطريق والأماكن[6].

وفى سنة ١٣٨هـ أمر أبو جعفر المنصور ببناء البرك فى طريق مكة/ المدينة. وقد عملت فى هذه السنة بركتان، بركة فى عسفان والأخرى فى بدر، من أجل تخزين مياه الأمطار للاستفادة منها فى سقاية الحجاج أثناء مرورهم بالطريق[7].

---

(١) قطب الدين: تاريخ المدينة، ورقة ٢٣.
- الجزيرى: درر الفوائد، ص ١٩٢.

(٢) المصدر السابق، ص ١٩٣.

(٣) المصدر السابق: ص ١٩٤.

(٤) المراغى: تحقيق النصرة، ص ٧٠.

(٥) ابن الاثير: الكامل، جـ ٥، ص ٢٣٠.

(٦) المصدر السابق، جـ ٥، ص ٤٣٢.

(٧) المراغى: تحقيق النصرة، ص ٧٣.

وفى سنة ١٦٠هـ أمر المهدى باضاءة الطريق بواسطة الشموع. كما أمر صاحب البريد ببناء محطات للبريد بين مكة والمدينة حتى يكون على علم بأحوال الحجاج طوال رحلتهم من مكة إلى المدينة(١). وفى العام التالى لهذه الاصلاحات زيد عدد البرك فى الطريق بين المدينتين(٢).

وفى سنة ١٧٠هـ أمر هارون الرشيد باصلاح بعض الآبار التى خربتها الأمطار فى طريق مكة المدينة، ومن أهمها: آبار بدر(٣).

وفى سنة ٢٠٢هـ أمر المأمون بإصلاح طريق مكة المدينة كما أمر باصلاح بعض الآبار التى تقع على ذلك الطريق لكى يتزودوا بالماء منها(٤).

وعندما أصبحت الحجاز تابعة لولاية أحمد بن طولون فى سنة ٢٥٧هـ قام فى نفس ذلك العام باصلاح الطريق من مكة الى المدينة، ولقد اهتم بحفر الآبار وإصلاح البعض منها، وأهمها الآبار التى فى عسفان والجحفة، كما أصلح بعض الخراب الذى حدث فى عين خليص(٥).

هذا ولم تذكر لنا المصادر التاريخية اصلاحات حدثت فى ذلك الطريق بعد هذه الفترة الزمنية الا فى زمن محمد بن طنج الاخشيدى. ففى سنة ٣٢٠هـ أمر الأخشيد باصلاح بعض الآبار التى تعرضت لخراب السيول فى طريق مكة المدينة(٦).

وفى سنة ٣٥٩هـ أصلح طريق مكة المدينة بأمر من الخليفة الفاطمى المعز لدين الله، كما أصلحت الآبار التى طمرت فى الطريق لكى لا يجد الحجاج صعوبة فى حصولهم على الماء(٧).

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ٦، ص ٤٨.
(٢) الجزيرى: درر الفوائد، ص ٢٠١.
(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ٦، ص ١٠٧.
(٤) المصدر السابق: جـ٦، ص ٢١١.
(٥) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٢، ص ١٣٩.
(٦) المصدر السابق: جـ٣، ص ٢٣٤.
(٧) الجزيرى: درر الفوائد، ص ٢٤٥.

وفى سنة ٣٩٠هـ أمر الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله باصلاح الطريق من مكة إلى المدينة، واصلاح بعض الآبار التى تعرضت للخراب[١].

وفى سنة ٤٢٧هـ أمر الخليفة المستنصر بالله بإصلاح الآبار الواقعة بين بدر ورابغ وأصلح عين خليص التى تعرضت للخراب فى تلك الفترة الزمنية[٢].

هذا ولم تحدث أية اصلاحات للطريق والآبار منذ سنة ٤٥٧هـ حتى سنة ٥٦٩هـ ، فحينما تعطلت بعض الآبار فى طريق مكة المدينة سنة ٥٦٩هـ أمر الخليفة المستضىء بالله العباسى باصلاح الطريق والآبار التى تقع فيه[٣].

وفى سنة ٥٧٢هـ أمر صلاح الدين الأيوبى باصلاح الطريق والآبار التى تقع فيه كما أمر باصلاح البرك التى تعرضت للخراب فى ذلك الطريق[٤].

وبعد هذا التاريخ لم تحدثنا المصادر عن أية اصلاحات لطريق مكة المدينة، أو ما حدث به من خراب فى الآبار حتى نهاية الحقبة الزمنية.

٢ - توفير المياه فى المدينة المنورة:

لا يصيب الحجاج أى عناء فى سبيل الحصول على الماء وهم فى المدينة المنورة، ذلك أن المدينة تقع فى منطقة كثيرة المياه، كما أن بيوتها تشتهر بوجود الآبار داخلها[٥].

وقد اهتم الرسول صلى الله عليه وسلم، وخلفاؤه الراشدون وخلفاء بنى أمية وأهالى المدينة أنفسهم بحفر الآبار فى المدينة مما أدى إلى زيادة عددها[٦]. ومن الجدير بنا أن نذكر أن المدينة المنورة خلال الحقبة الزمنية لهذا البحث لم تتعرض لأية أزمة فى المياه، كما لم يحدث أى خراب لعيونها أو آبارها لبعد موقعها عن مجارى الأودية التى تجرى فيها السيول.

(١) الجزيرى: درر الفوائد، ص ٢٤٩.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٤٦.
(٣) الجزيرى: درر الفوائد، ص ٢٥٤.
(٤) ابوشامة: الروضتين فى أخبار الدولتين، جـ١، ق ٢، ص ٤٥١.
(٥) السمهودى: وفاء الوفاء، جـ٣، ص ٩٤٢.
(٦) قطب الدين: تاريخ المدينة المنورة، ورقة ٣٨.

هذا وآبار المدينة وعيونها عديدة، ومن أشهرها وأهمها:

أ ـ الآبـــار :

ـ بئر أنا:

هذه البئر عرفت فى العصر الجاهلى وتعود لبنى قريظة، ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، بجوارها قبته حين حاصر يهود بنى قريظة. ولقد شرب من هذه البئر، بعد أن أجلى هذه القبيلة وأصبحت هذه البئر تابعة للمسلمين يستفيدون منها لسقى مزارعهم[١]. وهذه البئر لا تعرف فى الوقت الحاضر[٢]. ويمكن القول بأنها فى منطقة العوالى بالمدينة حيث كانت تقع مساكن بنى قريظة.

بئر أنس :

وهى معروفة منذ العصر الجاهلى، وتشتهر بعذوبة مائها وهى ملك لأنس بن مالك بن النضر، وقد شرب منها رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما أحسن العوم فيها وهو فى سن السادسة[٣].

ومن المعلوم أن أهل المدينة كانوا يذهبون الى هذه البئر من أجل أن يتبركوا بها. ويقول صاحب كتاب عمدة الأخبار إن هذه البئر أهملت ولم يعرف مكانها[٤].

بئر اهاب :

وهى لسعد بن عثمان، وتقع بالحرة، وهى معروفة منذ الجاهلية. أتاها الرسول صلى الله عليه وسلم، وشرب منها فأصبح أهل المدينة يشربون من مائها ويسمونها زمزم[٥].

---

(١) ابن شبه: تاريخ المدينة، جـ ١، ورقة ١٠٢.
(٢) عبدالقدوس الأنصارى: آثار المدينة، ص ٢٤١.
(٣) السمهودى: وفاء الوفاء، جـ ٣، ص ٩٥٣.
(٤) العباس: عمدة الأخبار، ص ٢٦٦.
(٥) ابن شبه: تاريخ المدينة، جـ ١، ورقة ١٠٣.
ـ السمهودى: وفاء الوفاء، جـ ٣، ص ٩٥٢.

بئر جاسوم :

ويقول لها جاسم ايضا، وهى لأبى الهيثم، وتتصف بعذوبة مائها، ولقد شرب الرسول صلى الله عليه وسلم منها وتوضأ وصلى بجوار دار ابن الهيثم[1].

بئر جمل :

يحتمل أن هذه التسمية ترجع إلى جمل مات فيها أو أن الذى بناها رجل اسمه جمل، وكانت معروفة منذ زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، ولقد توضأ منها وشرب وهى تقع قرب البقيع[2].

بئر حلوة :

وتقع فى زقاق حلوة الذى فيه دار آمنة بنت سعد[3]، ويقال إنها حفرت فى زمن خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه[4]، ويقول السمهودى صاحب كتاب وفاء الوفاء: إن الرسول صلى الله عليه وسلم قد شرب من هذه البئر، وهى معروفة منذ أن هاجر الرسول غير أنه لا يعرف من حفرها، وكانت هذه البئر وقفا لمن أراد أن يتزود منها بالماء وكان الحجاج يقصدونها من أجل سقياهم[5].

بئر زرع :

وهى لبنى خطمة، وتقع بجوار مسجدهم، ولقد توضأ منها الرسول صلى الله عليه وسلم، وبصق فيها[6]. ومن المعلوم أن هذه البئر قد عرفت منذ العصر الجاهلى، وكانوا يستفيدون منها فى شتى المزارع المحيطة بها[7].

---

(١) ابن شبه: تاريخ المدينة، جـ١، ورقة ١٠٤.
- السمهودى: وفاء الوفاء، جـ٣، ص ٩٥٩.

(٢) المصدر السابق، جـ٣، ص ٩٦١.

(٣) المراغى: تحقيق النضرة، ص ١٠٧.

(٤) المصدر السابق، ص ١٠٩.

(٥) السمهودى: وفاء الوفاء، جـ٣، ص ٩٦٢.

(٦) ابن شبه: تاريخ المدينة، جـ١، ص ١٠٥.

(٧) السمهودى: وفاء الوفاء، جـ٣، ص ٩٦٦.
- المراغى: تحقيق النضرة، ص ١٢١.

بئر العقبة :

وهذه البئر هى التى أدلى فيها الرسول صلى الله عليه وسلم، ومعه أبوبكر وعمر رضى الله عنهما، ولم يعرف موضع هذه البئر ولا أين تقع[1].

بئر ابن عتبة :

تقع خارج المدينة بميل واحد، ولقد عسكر الرسول صلى الله عليه وسلم، بجوارها حينما ذهب لغزوة بدر الكبرى، ثم عرفت بعد ذلك ببئر ودى[2]. وهى أعذب من بئر أنا، وقد عرفت منذ العصر الجاهلى وتقع شمال بئر السقيا[3].

بئر العهن :

وهى بئر عذبة منقورة فى جبل نزل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوضأ من مائها، وتعتمد المزارع المحيطة بها على مياهها[4]. وتقع هذه البئر فى منطقة العوالى[5].

بئر القريضة :

يقال بأنها تقع شرق المدينة. توضأ منها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشرب منها ويقال إن خاتمه وقع فيها، وهى معروفة حتى اليوم ببئر الخاتم[6].

بئر اليسيرة :

اسمها فى الجاهلية العسيرة، ولما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بجوار هذه

(١) السمهودى: وفاء الوفاء، جـ٣، ص ٩٧٦.
(٢) العباسى: عمدة الأخبار، ص ٢٥١.
(٣) السمهودى: وفاء الوفاء، جـ٣، ص ٩٧٧.
ـ المراغى: تحقيق النصرة، ص ١٢٢.
(٤) الانصارى: آثار المدينة، ص ٩٥.
(٥) المرجع السابق، ص ١٠٠.
(٦) العباس: عمدة الأخبار، ص ٢٢٦.
ـ المراغى: تحقيق النصرة، ص ١٢٤.

البئـر، وقف وسـأل ما اسمها؟ قالوا له: اسمها العسيرة، فقال: لا ولكن اسمها اليسيرة، فتوضأ منها وشرب وسميت بعد ذلك بهذا الاسم[1].

بئر أريس :

تقع هذه البئر شمال غرب مسجد قباء، وتنسب إلى رجل من اليهود اسمه اريس. ولقد اشتراها عثمان بن عفان رضى الله عنه بماله الخاص[2].

ولقد وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلى هذه البئر وتوضأ منها ومعه أبوبكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم، ويقال إن خاتم النبى صلى الله عليه وسلم، سقط فيها من يد عثمان بن عفان بعد خلافته بستة أعوام[3]. وتعرف ببئر الخاتم وتشتهر بعذوبة مائها[4].

بئر رومة :

تقع فى شمال غرب المدينة على الضفة الغربية لوادى العقيق، وتنسب الى رومة الغفارى[5]. ويذكر بأنها عمرت عدة مرات. ولقد اشتراها عثمان ابن عفان رضى الله عنـه، وتصدق بها لكافة المسلمين يستقون منها[6]. ويذكر بأن آخر من جددها هو القاضى شهاب الدين الطبرى قاضى مكة[7].

بئر غرس :

تقع شمال شرق مسجد قباء، على بعد نصف ميل تقريبا، وقد عرفت منذ العصر

---

(١) العباس: عمدة الاخبار، ص ٢٢٦.

(٢) ابن شبه: تاريخ المدينة، جـ١، ورقة ١٠٥.
- السمهودى: وفاء الوفاء، جـ٣، ص ٩٨٥.
- العباس: عمدة الاخبار، ص ٢٥٣.

(٣) ابن الاثير: الكامل، جـ٣، ص ٢٣٢.

(٤) السمهودى: وفاء الوفاء، جـ٣، ص ٩٨٥.

(٥) ابن شبه: تاريخ المدينة، جـ١، ورقة ١٠٥.

(٦) ابن هشام: السيرة، جـ٣، ص ٩٢.

(٧) قطب الدين: تاريخ المدينة المنورة، ص ٩٨٥.

الجاهلى، وهى تعود لقبائل الخزرج حفروها من أجل سقيا مزارعهم الخاصة بهم، ويعرف موضعها باسم الغرس(١). ويقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم شرب منها، وإنه قال لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه، اغسلنى من ماء بئر غرس(٢).

بئر حار :

هذه البئر ملكا لأبى طلحة الخزرجى، وقد جعلها وقفا للمسلمين ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى. وتتصف بعذوبة مائها. وتقع خارج سور المدينة المنورة(٣).

بئر بضاعة

كانت ملكا لبنى ساعدة وماؤها عذب، وقد توضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم منها وشرب(٤).

ويقال عن أسماء بنت أبى بكر الصديق (كنا نغسل المرضى من بئر بضاعة ثلاثة أيام فيعافون)(٥). لعل من هذا النص يتضح أن هذه البئر كانت مباركة. لهذا كان الحجاج يذهبون إليها(٦).

بئر السقيا :

سميت بهذا الاسم لأن النبى صلى الله عليه وسلم، كان دائما يستقى منها(٧).

(١) السمهودى: وفاء الوفاء، جـ٣، ص ٩٨٥.
(٢) ابن شبه: تاريخ المدينة، جـ١، ورقة ١٠٧.
(٣) السمهودى: وفاء الوفاء، جـ٣، ص ٩٨٦.
العباس: عمدة الأخبار، ص ٢٥٤.
(٤) ابن هشام: السيرة، جـ٣، ص ٩٤.
ـ السمهودى: وفاء الوفاء، جـ٣، ص ٩٨٦.
(٥) ابن شبه: تاريخ المدينة، جـ١، ص ١٠٧.
(٦) عبدالقدوس الانصارى: آثار المدينة، ص ٩٥.
(٧) ابن هشام: السيرة، جـ٣، ص ١٠٢.

وكانت هذه البئر لبنى زريق من الأنصار، ثم اشتراها محمد بن أبى وقاص وجعلها لسقيا المسلمين(١).

بئر القراض :

صاحبها عبدالله بن عمرو بن حرام، وكانت تقع جهة مسجد الخربة فى غرب مسجد الفتح، وهى الآن غير معروفة(٢).

بئر عروة :

تقع هذه البئر على ضفاف وادي العقيق، وتنسب إلى عروة بن الزبير ابن العوام. وقد اشتهرت هذه البئر بعذوبة مائها. ولذلك أصبح جميع الزوار يذهبون لهذه البئر من أجل أن يشربوا منها فأصبحت لها شهرة(٣).

بئر أبى أيوب :

تقع شمال البقيع، وتنسب إلى أبى أيوب الانصارى، وماؤها يشتهر بعذوبته وغزارته، ويقصدها الحجاج، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد سكن فى دار أبى أيوب حينما هاجر الى المدينة(٤).

بئر فاطمة بنت الحسين :

لقد حفرت السيدة فاطمة بنت الحسين بئرا بالحرة الغربية جنوب غرب المدينة، وقامت بحفر هذه البئر بنفسها، ثم أكمل الحفر العمال وجعلتها لسقيا المسلمين(٥).

---

(١) الانصارى: آثار المدينة، ص ٩٧.

(٢) ابراهيم العياش: المدينة بين الحاضر والماضى، ص ١٧٨.

(٣) ابن شبه: تاريخ المدينة، جـ ١، ورقة ١١٣.

ـ السمهودى: وفاء الوفاء، جـ ٣، ص ٩٨٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل، جـ ١، ص ٤٠٥.

(٥) ابن شبه: تاريخ المدينة، جـ ١، ورقة ١١٤.

ـ السمهودى: وفاء الوفاء، جـ ٣، ص ٩٩٠.

ـ العباسى: عمدة الاخبار، ص ٢٥٦.

ب ـ العيـــون :

عين الخيف :

تقع شمال شرق المدينة المنورة، من بعد الخيف الشامى المسمى عند أهل المدينة بالسبع ، وقد صنع لهذه العين مجارى وقنوات فى السنة السابعة من الهجرة لرى المزارع المحيطة بالمدينة[1].

ولقد قام سكان المدينة بعمل القنوات الخاصة لكل بستان لكى يصب فيها ماء العين . وفى هذا المقام نشير إلى أن هذه العين لم يستفد منها فى سقاية أهل المدينة سوى حجاج الركب الشامى ، لأنها تقع فى مدخل طريق الحج الشامى[2].

والغرض من إقامة هذه العين هو تحسين الزراعة ، وزيادة الانتاج الزراعى ، وقد قام خلفاء دولة الراشدين والدولة الأموية والدولة العباسية باجراء اصلاحات لهذه العين . ففى عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أصلحت هذه العين فى سنة ١٧هـ وجدد حفر بعض القنوات المتصلة بها[3].

وفى عهد الخليفة الأموى الوليد بن عبدالملك وعمر بن عبدالعزيز زيد فى عدد قنواتها وأصبحت بعد ذلك تسقى جميع المزارع[4].

وفى عهد أبى جعفر المنصور سنة ١٤١هـ أصلح الخراب الذى حدث لهذه العين من الجهة الجنوبية[5].

---

(١) ابن هشام : السيرة، جـ٣، ص ١٢٨.

(٢) الانصارى : آثار المدينة، ص ١٠٢.

ـ على حافظ : فصول من تاريخ المدينة، ص ٣٨.

(٣) السمهودى : وفاء الوفاء، جـ٣، ص ٩٩١.

ـ ابراهيم العياش : المدينة بين الحاضر والماضى، ص ١٤٢.

(٤) المقريزى : الذهب المسبوك، ص ٣٠.

ـ عبدالقدوس الانصارى : آثار المدينة، ص ١٠٣.

(٥) المرجع السابق، ص ١٠٤.

وفى عهد هارون الرشيد أمر واليه بزيادة عدد قنواتها واصلاح الخراب الذى حدث بها[1]. هذا ولم تذكر لنا المصادر أية اصلاحات حدثت لهذه العين بقية الفترة الزمنية لهذا البحث.

عين الشهداء :

تقع هذه العين قرب جبل أحد شمال المدينة[2]. وتنقسم المصادر التاريخية ازاء تاريخ نشأة هذه العين إلى قسمين:

القسم الأول: يزعم أن معاوية بن أبى سفيان هو الذى أمر بانشائها سنة ٥٠هـ[3]. والقسم الثانى: والذى نميل اليه، يذكر أنها عين قديمة خاصة بالبساتين والمزارع التى تقع شمال المدينة[4]. وبعد مقتل حمزة عم الرسول صلى الله عليه وسلم فى غزوة أحد اصطلح على تسميتها بعين الشهداء نسبة إلى شهداء أحد، أو بعين حمزة نسبة الى حمزة بن عبدالمطلب[5].

ومن المعلوم أن هذه العين حدث بها خراب، وأنها لم تعمر منذ سنة ٩٣هـ، ولذلك لم يستفد منها منذ ذلك التاريخ[6].

أما العين التى أمر بانشائها الخليفة معاوية بن أبى سفيان فتقع جنوب غربى المدينة فى منطقة قبا وليست هذه العين، وتسمى عين الزرقاء.

---

(١) عبدالقدوس الأنصارى: آثار المدينة، ص ١٠٤.

(٢) السمهودى: وفاء الوفاء، جـ٣، ص ١٠٠٢.

(٣) المصدر السابق، جـ٣، ص ١٠٠٣.

- ابراهيم العياشى: المدينة بين الحاضر والماضى، ص ١٤٤.

(٤) قطب الدين: تاريخ المدينة، ورقة ٦١.

- المراغى: تحقيق النصرة، ص ١٣٤،

(٥) عبدالقدوس الانصارى: آثار المدينة، ص ١٠٤.

- على حافظ : فصول فى تاريخ المدينة، ص ٤٠.

(٦) المرجع السابق، ص ٤٢.

عين الزرقاء:

تقع عين الزرقاء جنوب غرب المدينة المنورة، وتستمد ماءها من عين تسمى الجعفرية، ولكيي يصل ماؤها إلى المدينة أوصل بمياه آبار عديدة بواسطة قنوات صنعت لتصل هذه الآبار ببعض وتلتقى بعين الزرقاء فى مجرى واحد ينقسم فى داخل المدينة إلى ثلاث قنوات تسكب ماءها فى ثلاثة بازنات رئيسية أنشئت بداخل المدينة من أجل سقى أهل المدينة والحجاج فى فترة الزيارة[1].

والذى أمر بعمل هذه العين هو الخليفة معاوية بن أبى سفيان سنة ٥٠هـ بعد أن رأى الراحة التى يتمتع بها أهل الشام فى حصولهم على المياه من الأنهار الجارية فى بلادهم[2]. وكان هدف معاوية من اجراء هذه العين واهتمامه بها من أجل استمالة أهل المدينة إليه[3].

ويقال إن هذه العين سميت بالزرقاء نسبة إلى مروان بن الحكم والى المدينة حيث أنه كان أزرق العينين[4]. ويقال انها سميت الزرقاء لأنها تستقى ماءها من بئر الأزرق الذى يقع بجوار عين جعرانة[5].

وحرصا على استمرار هذه العين من أجل سقى أهل المدينة والحجاج وتوفير المياه لهم، قام الخلفاء بعمل عدة اصلاحات بها.

ففى سنة ١٤١هـ أمر الخليفة أبوجعفر المنصور بعمل البازانات شمال المدينة وغربها، وأوصل هذه البازانات بقنا عين الزرقاء[6].

---

(١) المراغى: تحقيق النصرة، ص ١٣٥.
- الانصارى: آثار المدينة، ص ١٠٧.

(٢) أحمدالشريف: دور الحجاز فى الحياة السياسية فى القرن اول الهجرى، ص ٦٥.

(٣) المرجع السابق، ص ٧٠.

(٤) السمهودى: وفاء الوفاء، جـ٣، ص ١٠٠٦.

(٥) المراغى: تحقيق النضرة، ص ١٤٨.
- ابن النجار: الدرة الثمينة، ص ١٨.

(٦) ابن الاثير: الكامل، جـ ٥، ص ٥٠٧.

وفى سنة ٢١٠هـ حينما علم المأمون بأن خرابا حدث ببعض قنواتها أمر واليه على المدينة المنورة باصلاح هذه القنوات التى تصدعت[1].

وفى سنة ٥٦٠هـ قام ابن أبى الهيجاء[2] بعمل بازانات تحت الأرض تصلها المياه من عين الزرقاء بواسطة قنوات انشئت من أجل ذلك، وكان السقاة ينزلون اليها بواسطة سلالم بنيت خصيصا لهذا الغرض، كما وضع عمالا للاشراف على هذه البازانات ولتنظيم مساقط المياه فيها[3]. وفى نفس العام أمر ابن أبى الهيجاء بايصال الماء داخل المسجد النبوى الشريف، ولكن لسوء استعمال الحجاج للمياه واستخدامهم اياه للوضوء أمر والى المدينة فى السنة التالية باخراج هذه القناة إلى خارج المسجد النبوى[4].

وبعد هذا التاريخ لم تذكر المصادر أية اصلاحات أجريت للعين خلال الفترة الزمنية المتبقية من هذا البحث.

٣ ـ توفير الأطعمة للحجاج فى المدينة المنورة :

ساعدت خصوبة التربة ووفرة مياه الآبار والعيون على كثرة المزارع وكثرة المشتغلين فيها حتى أصبحت الزراعة الحرفة الرئيسية لأهل المدينة[5]. وقد وردت آيات قرآنية كثيرة تشير إلى زراعة النخيل والأعناب والمحاصيل الأخرى، ومن بينها الحبوب والبقول فى المدينة. وكانت هذه الزراعات توفر الجزء الأكبر من حاجة السكان

---

(١) عبدالقدوس الانصارى: آثار المدينة، ص ٢٦٢.
ـ ابراهيم العياشى: المدينة بين الحاضر والماضى، ص ٢٢٩.

(٢) ابن ابى الهيجاء: هومقاتل بن عطية ولد سنة ٥١٥، اشتغل بالشعر، وهو من شعراء العصر العباسى الثانى. ولقد قصد الحج سنة ٥٦٠هـ وقام بأعمال خيرية فى المدينة المنورة.. انظر:
ـ خير الدين الزركلى: الاعلام، جـ ٩، ص ١١٩.

(٣) السمهودى: وفاء الوفاء، جـ ٣، ص ١١١٨.

(٤) المراغى: تحقيق النصرة، ص ١٣٦.

(٥) البتنونى: الرحلة الحجازية، ص ٥٣.
ـ أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص ٣٥٦.

الغذائية[1]. وبالاضافة الى الزراعة فقد اشتغل أهل المدينة بالرعى والصيد.

فلقد كانت الحرفة الرئيسية لسكان المدينة المنورة هى الزراعة نظرا لطيبة ترتبتها، اذ أن تربتها بركانية خصبة، كما كانت تسيل بها وديان كثيرة وتفيض بمياه السيول فى الغرب والشمال، ومن أهم المزروعات فى المدينة أشجار النخيل التى كانوا يزرعونها بفارس فكانت لديهم أنواع كثيرة من التمر الذى كان جل طعامهم، بل كان أساس التعامل بينهم، فكانت تدفع منه الأجور وتسدد الديون، كما كانوا ينتفعون بكل شىء من النخلة حتى لقد شبه النبى صلى الله عليه وسلم، المؤمن بالنخلة كل ما فيه خير[2].

كما اهتم المزارعون فى المدينة بزراعة الشعير الذى كان يزرع بين أشجار النخيل، كما اهتموا بزراعة القمح والكروم وأنواع من الفواكه كالرمان والموز والليمون البطيخ وأنواع من الخضار والبقول كالقرع واللوبيا والسلق والبصل، والثوم والقثاء[3].

وكان أهل المدينة يعملون بالزراعة، فمنهم من كان يملك الأرض الواسعة فيزرعها لحسابه أو يزارع عليها غيره أو يؤجرها[4].

ولقد انتعشت الزراعة فى المدينة بعد أن استقرت أحوال المهاجرين وقضى على المنازعات الداخلية فاستغلت الأراضى وأصلح مواتها وأعدت للزراعة لتوفير الطعام لأهل المدينة ومن يفد إليها من سكان البادية والحجاج فى مواسم الحج[5].

وعلى الرغم من أن منطقة المدينة لم تكن بلاد رعى لأن أرضها صالحة للزراعة وانتاج الحاصلات الزراعية، الا أن هناك قبائل بدوية كانت تقوم بالرعى على ما ينبت فى منطقة المدينة من أشجار وشجيرات رعوية بالقرب من مجمع الأسيال، والى جنوب المدينة على طريق مكة كانت هناك مراع حماها رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعد

---

(١) ابراهيم رفعت: مرآة الحرمين، جـ ١، ص ٤٤٠.

(٢) المرجع السابق، جـ ١، ص ٤٤٢.

(٣) السمهودى: وفاء الوفاء، جـ ١، ص ١٥٣.

(٤) المصدر السابق، جـ ١، ص ١٥٥.

(٥) ابن هشام: السيرة، جـ ٢، ص ١٨٦.

الهجرة لإبل الصدقة ترعاها حتى توفر هذه الإبل من ألبانها وصوفها ما يحتاجون اليه من طعام[1]

وكان الصيد من مصادر الطعام أيضا، فكان حرفة من الحرف التى زاولها سكان المدينة الحضر منهم وأهل البادية، وكان وسيلة من وسائل المعاش عند بعض الناس، ولقد تعددت وسائل الصيد، وكانت حيوانات الصحراء التى تصاد هى الحمر الوحشية والغزلان والأرانب والضباب، كما زاولوا أيضا صيد البحر، ولقد ورد ذكر الصيد بنوعيه فى القرآن الكريم مما يدل على أن الناس كانوا يزاولونه ينتفعون به ويعولون عليه فى حياتهم ومعايشهم[2].

ولأهمية مصادر العيش هذه فقد بذل الرسول صلى الله عليه وسلم، جهودا فى تنظيمها وحمايتها لاعتماد أهل المدينة عليها فى طعامهم.

وقد ظهر أثر هذا التنظيم والتشريعات الاسلامية فى الحياة التجارية واضحا فى النهى عن الربا ومنع استخدام الوسائل غير الشرعية فى البيع والشراء والمعاملات، والنهى عن الخداع وتلقى الركبان، والنهى عن بيع الطعام قبل أن يصل السوق، والنهى عن الغش واعتبار الغاش خارجا عن الجماعة[3].

وكان لتحديد الكيل والوزن أساس فى البيع وكان له أثره الكبير فى تسهيل الحياة التجارية والوصول الى وضع الاستقرار وتوفير الطعام لجميع السكان سواء كانوا مقيمين أو زوارا[4].

ولقد نظم الرسول صلى الله عليه وسلم، الأسواق المختلفة التى أقيمت فى

(١) ابن الاثير: الكامل، جـ ٢، ص ٤١٥.
- ياقوت: معجم، جـ ٥، ص ٩١.
(٢) السمهودى: وفاء الوفاء، جـ ١، ص ١٥٨.
- المراغى: تحقيق النصرة، ص ٢٨.
(٣) على المالكى: الشافى الصغير، ورقة ٩٦أ.
(٤) المصدر السابق، ورقة ٩٧أ.

المدينة، وخصص لكل فئة من التجار مكانا خاصا بها. وكان يباع فى هذه الأسواق انتاج المدينة من المحاصيل(1)، وبعد أن بدأ يفد إلى المدينة تجار الأمصار الإسلامية أصبحت الحركة التجارية أكثر نشاطا واستقرارا فى ظل الدولة الإسلامية(2).

وفى هذه الفترة قامت فى المدينة صناعات مختلفة، اعتمدت على الانتاج الزراعى. فقد سكن المدينة صناع متخصصون احترفوا أنواعا من الصناعات وبخاصة صناعة الحلى والأسلحة(3).

هذا ويتضح لنا من دراستنا الفاحصة لهذه الحقبة الزمنية التى تخص هذا البحث، أن المصادر لم تذكر لنا أية أزمة اقتصادية واجهت أهالى المدينة المنورة وزوارها سوى فى عام الرمادة فى زمن الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

ففى حج عام ١٨هـ امتحن الله المسلمين بالجوع والظمأ فلم ينزل المطر واشتدت الحرارة فى ذلك العام فاحترقت الأرض وأسود لونها كأنها الرماد فسمى هذا العام بعام الرمادة. وقد اضطر الخليفة أن يكتب إلى عماله فى الأقاليم يأمرهم بأن يرسلوا الامداد والمؤنة ليتمكن من إطعام سكان المدينة والحجاج عن طريق الموائد العامة(4)، وقال قولته المشهورة: (نطعم ما وجدنا أن نطعم فان أعوزنا جعلنا مع كل بيت ممن يجد عدتهم، لا يجد، إلى أن يأتى الله بالحيا)(5).

٤ ـ توفير السكن للحجاج فى المدينة المنورة فى فترة الزيارة:

لا جدال فى أن مساحة المدينة المنورة العمرانية أقل من مساحة مكة المكرمة، كما

(١) ابن هشام: السيرة، جـ ٢، ص ١٨٧.
(٢) ابن الاثير: الكامل، جـ ٤، ص ٢٢٠.
(٣) ابراهيم رفعت: مرآة الحرمين، جـ ١، ص ٤٤٦.
ـ البتنونى: الرحلة الحجازية، ص ٥٨.
(٤) ابن الأثير: الكامل، جـ ٢، ص ٥٥٢.
ـ الجزيرى: درر الفوائد، ص ١٨٧.
ـ ابراهيم رفعت: مرآة الحرمين، جـ ١، ص ٤٤٩.
(٥) ابن الاثير: الكامل، جـ ٢، ص ٥٥٣.

أن أكثر بيوتها أقيمت حول المسجد النبوى. وهذه المبانى تتكون من طابقين وثلاثة شيدها أهل المدينة من الحجارة[1].

وعندما تعرضت المدينة لاعتداء القبائل العربية المجاورة لها، وبدأ اعتداء القرامطة على مكة سنة ٣١٧هـ طلب أهلها من الخليفة العباسى المقتدر بناء سور حول المدينة لحمايتهم من أى اعتداء يقع عليهم. فاستجاب الخليفة لطلبهم وتم فى سنة ٣١٨هـ بناء سور منيع أحاط بالمدينة وجعل له أربعة أبواب: بابا بالمشرق وبابا بالمغرب، وبابا جهة الشام، وبابا جهة اليمن[2]. وقد جدد بناء هذا السور سنة ٣٧٢هـ بأمر من عضد الدولة بن بويه فى خلافة الطائع بالله[3]، كما جدد بناؤه سنة ٥٥٧هـ بأمر من الملك العادل نور الدين محمود زنكى[4].

وبعد هذه الاشارة الوجيزة لمساكن المدينة وسورها، نقول بأن أهل المدينة كانوا يستقبلون كل من يفد إليهم من الحجاج فى بيوتهم الخاصة يحتفون به ويحسنون ضيافته ويهيئون له ما يستطيعون من سبل الراحة ولا يتقاضون على ذلك أجرا[5].

ومنذ خلافة معاوية بن أبى سفيان بدأ الحجاج يفدون إلى المدينة ومعهم الصدقات، كما قام معاوية بإرسال الأموال الى والى المدينة لتوزيعها على أهلها[6].

---

(١) البتانونى: الرحلة الحجازية، ص ٧٠.
- الانصارى: آثار المدينة، ص ٢٧٣.
- ابراهيم العياشى: المدينة بين الحاضر والماضى، ص ٣٨٨.

(٢) السمهودى: وفاء الوفاء، جـ ١، ص ٣١٧.
- العباسى: عمدة الاخبار، ص ٢١٢.

(٣) ابن الاثير: الكامل، جـ ٩، ص ١٠٥.
- احمد السعيد: تاريخ الدولة الاسلامية ومعجم الاسرات الحاكمة، جـ ١، ص ١٢.

(٤) ابن الاثير: الكامل، جـ ١١، ص ٧٨.
- المقريزى: الذهب المسبوك، ص ٦٧.

(٥) البتنونى: الرحلة الحجازية، ص ٧٦.
- ابراهيم العياش: المدينة بين الحاضر والماضى، ص ٣٩٠.

(٦) احمد الشريف: دور الحجاز السياسى فى القرن الأول الهجرى، ص ٩٧.

والباحث فى أحوال المدينة لا يجد أى شكوى للحجاج من معاملة أهلها لهم خلال الحقبة الزمنية التى يتحدث عنها هذا البحث. وهذا يرجع إلى حسن تربية أهل المدينة على سيد البشر صلى الله عليه وسلم، وعلى أيدى خلفائه من بعده. وهذه التربية التى جعلت أهـل المدينة يمتازون بالورع والصلاح والأدب وحسن المعاشرة، كما يعزو البتنونى رقة أهل المدينة وما امتازوا به من حسن المعاملة إلى صحة مناخها، فيقول فى هذا الصدد: «إن مناح المدينة صحى، فربما كان ذلك من الأسباب التى ساعدت على رقة أهلها ولطافة أمزجتهم بالاضافة الى ذلك ما يمتازون به من الورع والصلاح والأدب وحسن المعاشرة»[1].

وعندما زاد عدد سكان المدينة، وزاد عدد المجاورين والوافدين اليها، من الحجاج والتجار وطلبة العلم، ولم تعد مساكنها تكفى لسكن هؤلاء وأولئك مما جعل الخلفاء والأمراء والتجار يقومون بانشاء دور وأربطة حول المسجد النبوى الشريف[2]. ولقد أوقفت الدور لسكن الحجاج منذ بداية القرن الأول الهجرى، وفيما يلى عرض للدور والأربطة التى ورد ذكرها فى المصادر التاريخية.

أ ـ الـــدور :

دار عثمان بن عفان رضى الله عنه:

فى عهـد الرسول صلى الله عليه وسلم، بنى عثمان بن عفان رضى الله عنه، بالمدينة دارين أمام باب جبريل: الدار الصغرى خصصت فى فترة خلافته لاستقبال الحجاج، ثم اشتراها بعد ذلك مجموعة من التجار المغاربة وزادوا فى بنائها وجعلوها رباطا، أما الدار الكبرى، فكانت سكنا لعثمان وفيها قتل[3]، ثم أصبحت بعد ذلك رباطا، وسوف نورد الحديث عنها فى مجموعة الأربطة..

(١) البتنونى: الرحلة الحجازية، ص ١١٢.

(٢) السمهودى: وفاء الوفاء، جـ٣، ص ١٠٥٠.

(٣) عبدالقدوس الانصارى: آثار المدينة، ص ٤٢.

دار جعفر الصادق :

اشتراها جعفر الصادق من صاحبها حارثة بن النعمان الانصارى، وأوقفها على من يتولى خدمة الحرم النبوى. وهى الآن من أوقافه[1]. وهذه الدار ملاصقة لدار أبى أيوب الأنصارى من الناحية الجنوبية لها[2].

دار ريطــة :

نسبة إلى ريطة ابنة أبى العباس السفاح[3]، ويقال إن ريطة هى والدة الخليفة[4]. ويذكـر السمهـودى أن هذه الدار كانت لأبى بكر الصديق[5]. غير أن الأنصارى صاحب كتاب آثار المدينة يخالف السمهودى فى ذلك إذ يقول: «إن هذه الدار تقع شرقى دار أبى بكر الصديق أمام باب النساء مستدلا على ذلك بما شاهده من آثار لدار أبى بكـر الصـديق فى زقاق البقيع»[6]. وقد بنيت هذه الدار لاستقبال واقامة الحجاج فى فترة الزيارة وقد أنفقت فى بنائها وزخرفتها أموال كثيرة، وهى الآن ضمن أوقاف الحرم النبوى[7].

دار أبى أيوب الأنصارى :

تقـع فى النـاحية الجنوبية الشرقية من المسجد النبوى، وتاريخ بنائها يرجع الى ما قبل الهجرة وحينما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم، إلى المدينة نزل بها، وكانت هذه الدار تستقبل الحجاج فترة الموسم زمن الخلفاء الراشدين[8]. وقد اشتراها شخص

---

(١) عبدالقدوس الانصارى: آثار المدينة، ص ٤٢.

(٢) ابراهيم العياش: المدينة بين الحاضر والماضى، ص ٣٩٠.

(٣) ابن النجار: الدرة الثمينة، ص ٤٨.

(٤) المراغى: تحقيق النصرة، ص ١٦٨.

(٥) السمهودى: وفاء الوفاء، جـ ٣، ص ١٠٥٢.

(٦) الأنصارى: آثار المدينة، ص ٤٦.

(٧) المرجع السابق، ص ٤٧.

ـ والمقصود بأوقاف الحرم النبوى أى فى وقتنا الحاضر.

(٨) الأنصارى: آثار المدينة، ص ٤٧.

يدعى المغيرة بن عبدالرحمن وأوقفها على الفقراء والمغتربين المجاورين فى المدينة[1]. وهى مزار للحجاج يذهبون لزيارتها فى كل موسم[2].

دار آل عمر بن الخطاب :

وهى دار عبدالله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما، ويقال إنه أوقفها على الفقـراء والغرباء، وجعلها سكنا للحجاج فترة الموسم[3]، وهى الآن تابعة لأوقاف الحرم النبوى[4].

دار خالد بن الوليد :

وتقع هذه الدار بجوار دار ريطة من الجهة الشمالية، والذى بناها هو خالد بن الوليد فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وكانت مقرا لسكنه[5]. وفى سنة ٧٨هـ وبسبب انقراض أبناء خالد بن الوليد انتقلت ملكيتها إلى أيوب بن سلمى عن طريق الارث ثم بيعت بعد ذلك[6]. وبنى رباط مكانها سنة ٦٢٠هـ وسمى باسم خالد بن الوليد، وسوف نورد ذكره فى موضوع الأربطة. وإلى جانب هذا بنيت دور كبيرة لكن لا يعرف من الذى أوقفها أو شرط وقفيتها أو سنة وقفيتها، وقد أوقف جزء من هذه الـدور على خدمـة المسجد النبوى الشريف. وأكثر هذه الدور لم تعرف فى الوقت الحاضر بسبب التوسعة للمسجد النبوى فأغلبها أدخل فى هذه التوسعة.

ب ـ الأربطـــة :

رباط عثمان بن عفان :

فى سنة ٤٢٣هـ اشترى مجموعة من تجار المغرب الدار الصغرى للخليفة عثمان بن

(١) ابراهيم العياش: المدينة بين الحاضر والماضى، ص ٣٩٤.
(٢) الأنصارى: آثار المدينة، ص ٤٨.
(٣) المرجع السابق، ص ٤٩.
(٤) المرجع السابق، ص ٤٩.
(٥) المراغى: تحقيق النصرة، ص ١٦٩.
(٦) المرجع السابق، ص ١٧٠.

عفان وجعلوها رباطا لطلبة العلم من بلاد المغرب المقيمين فى المدينة، ولاقامة الحجاج المغاربة فترة الموسم[1]. ومن المعلوم أن عثمان بن عفان لم يوقف هذه الدار إلا أنه جعلها سكنا للحجاج فى فترة خلافته[2].

ولقد وسع التجار المغاربة هذه الدار بعد أن جعلوها وقفا وخصصوا غرفة بها لتكون مكتبة[3]، ويجد ربنا أن نشير إلى أن هذه المكتبة قد حوت أمهات كتب الفقه المالكى التى تبرع بها التجار والعلماء، لذا يمكن القول بأن هذا الرباط كان سكنا لبعض العلماء وطلبة العلم، وكانت تقام فيه حلقات الدروس[4]. ويذكر بعض نظار الرباط أن الدواليب أو الخزائن الحاوية للكتب الموجودة فى مكتبة هذا الرباط قد أخرجت من مكتبة هذا الرباط، وأنها قد أهديت إلى مكتبة الحرم النبوى فى أواخر القرن السادس الهجرى[5].

رباط الناصر لدين الله:

أمر الخليفة الناصر لدين الله فى سنة ٥٧٠هـ ببناء رباط لكى يكون سكنا لطلبة العلم المقيمين فى المدينة وللغرباء، ويقع هذا الرباط عند باب النساء، وقد جاء فى شرط وقفيته أن يكون سكنا للحجاج فى فترة الزيارة[6].

رباط المراغى:

أوقف قاضى القضاء أبوبكر محمد بن عبدالله المراغى فى سنة ٥٧١هـ رباطا يقع

(١) الأنصارى: آثار المدينة، ص ٤٩.
(٢) المراغى: تحقيق النصرة، ص ١٧٦.
(٣) الأنصارى: آثار المدينة، ص ٥٠.
(٤) المراغى: تحقيق النضرة، ص ١٧٧.
(٥) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ١٢، ص ٢٦١.
- الأنصارى: آثار المدينة، ص ٥١.
(٦) المراغى: تحقيق النضرة، ص ١٧٨.
- الأنصارى: آثار المدينة، ص ٥٢.

عند باب السلام ، وشرط وقفيته أن يكون سكنا للصوفية الزهاد والمقيمين فى المدينة ، وأن يكون سكنا للحجاج فى أثناء زيارتهم[1].

رباط البخارية :

بنى وأوقف تجار مدينة بخارى سنة **٥٧٧هـ** رباطا أمام باب الرحمة وجعلوا شرط وقفيته أن يكون سكنا للغرباء من مدينة بخارى والمجاورين فى المدينة وأن يكون سكنا للحجاج أثناء زيارتهم فى الموسم[2].

رباط الزنجبيلى :

بناه عثمان بن على الزنجبيلى ، نائب أمير عدن فى سنة **٥٧٩هـ** ، ويقع عند باب النساء ـ وقد أوقفه على الأحناف المقيمين بالمدينة كما جعله سكنا للحجاج القادمين من عدن أثناء زيارتهم للمدينة[3]. وقد أقيمت فى هذا الرباط مكتبة ضخمة تضم كتب الفقه الحنفى ، وكانت تقام فيه حلقات للدرس[4].

رباط والدة الخليفة الناصر لدين الله :

أوقفت والدة الخليفة الناصر لدين الله العباسى رباطا بالمدينة المنورة فى سنة **٥٩٩هـ** ويقع هذا الرباط أمام باب جبريل ، وجاء فى شرط وقفيته أن يكون سكنا للفقراء المنقطعين المقيمين فى المدينة . ولم يذكر أنه خصص لسكن الحجاج فترة الزيارة ، وقد سمى هذا الرباط باسمها[5].

رباط الأصفهانى :

بعد أن اشترى جمال الدين محمد بن على بن منصور الأصفهانى الدار الكبرى للخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فى أواخر القرن السادس الهجرى ، جعلها

(١) العباسى : عمدة الاخبار ، ص ٣٩٦ .

(٢) الأنصارى : آثار المدينة ، ص ٥٣ .

(٣) المراغى : تحقيق النضرة ، ص ١٧٩ .

(٤) ابن النجار: الدرة الثمينة ، ص ٧٨ .

(٥) السمهودى : وفاء الوفاء ، جـ٣ ، ص ١٠٥٧ .

رباطا لفقراء الحج من الفرس[1]. ويذكر السمهودى شهرة هذا الرباط برباط العجم[2]. ولقد شرط وأوقف هذا الرباط لكى يكون سكنا للحجاج فى فترة الموسم[3]. ولعله من المفيد أن نشير الى أن هذه الدار قد ظلت معروفة بالدار الكبرى لعثمان بن عفان رضى الله عنه، الى حين شرائها من قبل جمال الدين الأصفهانى.

رباط خالد بن الوليد:

يقع هذا الرباط فى دَارَىْ خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وكانا متجاورين، ولقد اشترى تجار بلاد غزنة هاتين الدارين من مالكيهما فى سنة ٦٢٠هـ، وقاموا بتجديد بنائهما وجعلوهما رباطا واحدا ليسكن فيه الغرباء من سكان الهند المقيمين فى المدينة، كما يسكنه الحجاج الهنود وقت زيارتهم فى فترة الموسم[4]. هذا وقد عرف هذا الرباط فيما بعد برباط السبيل نسبة لوجود بئر فيه، وكان هذا البئر سبيلا للحجاج[5].

أمكنة الزيارة وما قدم فيها من خدمات:

حرص خلفاء الدولة الإسلامية منذ بداية الخلافة الراشدة وحتى نهاية الحقبة الزمنية التى نتحدث عنها إلى توفير المياه فى كل مكان زاره الرسول صلى الله عليه وسلم، أو اختط أو بنى فيه مسجدا وصلى فيه وذلك حتى لا يجد الحجاج صعوبة فى حصولهم على المياه فى هذه الأمكنة التى اعتادوا زيارتها للتبرك[6]. وسنحاول فيما يلى أن نتتبع أعمالهم فى هذه الأماكن، وما قدموه فيها من خدمات..

---

(١) السمهدوى: وفاء الوفاء، جـ٣، ص١٠٥٨.
(٢) المصدر السابق، جـ٣، ص١٠٥٩.
(٣) المراغى: تحقيق النصرة، ص١٨٠.
- ابن النجار: الدرة الثمينة، ص٨٠.
(٤) الأنصارى: آثار المدينة، ص٥٥.
(٥) المرجع السابق: ص٥٦.
(٦) قطب الدين: تاريخ المدينة، ورقة ٦٢.

مسجد قباء:

لما قدم النبى صلى الله عليه وسلم، إلى المدينة قال لأصحابه انطلقوا بنا إلى أهل قباء نسلم عليهم، فأتاهم عليه الصلاة والسلام، وسلم عليهم ونزل عندهم، وفى قباء اختط مسجده الذى قام ببنائه بيده الكريمة(١). وقد جدد بناء هذا المسجد فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، بعد أن تصدع.

وتجدر الإشارة إلى أن أهمية هذا المسجد زادت فى نظر المسلمين الزائرين للمدينة بعد أن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من تطهر فى بيته، ثم أتى مسجد قباء، فصلى فيه ركعتين، كان له كأجر عمره)(٢).

وفى خلافة الوليد بن عبدالملك عملت الأساطين الرخامية بداخله وتم توسعته وتجديده(٣). كما عمل به حوض لجلب المياه لشرب الزائرين اليه(٤). كما تم فى خلافة أبى جعفر المنصور توسعة هذا المسجد من الجهة الشمالية، كما بنيت له منارة وعمل له منبر رخامى أحضر من بلاد الشام(٥).

وفى سنة ٥٥٥هـ أمر نور الدين محمود زنكى بتجديد بنائه وعمل له محرابا من الحجر، وجلب له أساطين الرخام من بلاد الشام(٦). هذا ولم تتحدث المصادر عن حدوث تجديد لهذا المسجد أو اقامة خدمات له فى هذه الحقبة الزمنية، إذ يعد تجديد نورالدين محمود آخر تجديد لهذا المسجد فى هذه الفترة.

مسجد بنى ظفر:

يعرف هذا المسجد باسم مسجد البغلة، وقد بناه جماعة من الأوس، وهو يقع

(١) العباسى: عمدة الأخبار، ص ٢١٠.

(٢) البخارى: صحيح، جـ٢، ص ١٩٨.

- السيوطى: تنوير الحوالك، شرح موطأ مالك، جـ١، ص ٧٨.

(٣) العباسى: عمدة الاخبار، ص ٢١١.

(٤) المراغى: تحقيق النصرة، ص ١٨٠.

(٥) السمهودى: وفاء الوفاء، جـ٣، ص ٨٠٦.

(٦) المرجع السابق، جـ٣، ص ٨٠٧.

شرق البقيع فى طرف الحرة الغربية[1]. ويقال: بأن النبى صلى الله عليه وسلم. صلى فيه كما يقال إن به حجرا فيه أثر للرسول صلى الله عليه وسلم[2].

وعندما حاصر مسلم بن عقبة المرى المدينة سنة ٦٣هـ[3]. أراد خلع الحجر فجاءه جماعة من بنى ظفر وقالوا: أعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، له أثر فى هذا الحجر. وطلبوا منه رده إلى مكانه فاستجاب لمطلبهم[4].

ولقد جدد بناء هذا المسجد فى عهد الخليفة الوليد بن عبدالملك وعمل له منبر رخامى[5]. وفى عهد الخليفة أبى جعفر المنصور أصلح بعض الخراب الذى حدث به[6]. وفى عهد الخليفة المأمون عمل له منارة وأرسل اليه الرخام، لعمل الاسطوانات بداخله[7].

وفى سنة ٦٠٣هـ أمر الخليفة العباسى الناصر لدين الله بتوسيع هذا المسجد وتجديد بنائه[8]. وبعد هذا التاريخ لم يحدث أى تجديد به خلال الحقبة الزمنية التى تخص هذا البحث.

مسجد الغمامة:

يقع هذا المسجد فى جنوب غرب المناخة، وهو مبنى بالحجارة، وبه ست قباب ويوجد بداخله عقود تحتها أعمدة منحوتة من الحجارة[9]. وتذكر الرواية أن هذا المسجد لم يكن مبنيا فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم بل كان فضاء يقيم فيه

---

(١) المراغى: تحقيق النصرة، ص ١٨١.

(٢) السمهودى: وفاء الوفاء، جـ ٣، ص ٨٠٧.

(٣) حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام السياسى، جـ ١، ص ٢٨٦.

(٤) ابن الأثير: الكامل، جـ ٤، ص ١١١.

(٥) المصدر السابق، جـ ٤، ص ٥٣٢.

(٦) ابن النجار: الدرة الثمينة، ص ٢٧.

(٧) المراغى: تحقيق النصرة، ص ١٨٢.

(٨) المصدر السابق، ص ١٨٣.

(٩) الأنصارى: اثار المدينة، ص ١٢٣.

الرسول صلى الله عليه وسلم صلاة العيدين[1]. ولم تذكر المصادر من أمر ببنائه من الخلفاء، ولكنها ذكرت من قاموا بتجديده. وأولهم الخليفة هارون الرشيد. كما قام الخليفة المتوكل على الله سنة ٢٣٦هـ باصلاحه وأرسل له منبرا رخاميا منقوشا عليه اسمه[2]. وتذكر رواية أخرى أنه بنى فى منتصف القرن الثانى الهجرى[3].

هذا ولم تتحدث المصادر بعد ذلك عن أية تجديدات حدثت لهذا المسجد خلال الحقبة الزمنية التى نتحدث عنها.

مسجد الفتح :

يقع هذا المسجد على جبل مصلح من ناحية القرين، وهو من المساجد التى أمر الرسول صلى الله عليه وسلم، ببنائها فى حياته، وترجع شهرة هذا المسجد إلى دعاء النبى صلى الله عليه وسلم، ربه فيه كى ينصره على الأحزاب، وقد استجاب الله سبحانه وتعالى لهذا الدعاء فى المرة الثالثة، وتم لرسوله النصر على الأحزاب[4]. ولا ننس فى هذا المقام أن نقول إن عثمان بن عفان رضى الله عنه، وهو أول من قام بتجديد بنائه[5]. وفى خلافة المهدى تصدعت بعض مبانيه، فأمر الخليفة باصلاحها[6].

وفى عهد الخليفة المعتصم أمر بتجديد بنائه، وأحضر من الشام الرخام لعمل الاسطوانات الرخامية بداخله[7].

وبعد هذا التاريخ لم تطرأ أية تجديدات لمسجد الفتح خلال الفترة الزمنية التى يتكلم عنها هذا البحث.

---

(١) المراغى: تحقيق النصرة، ص١٨٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ٧، ص٥٦.

(٣) ابن النجار: الدرة الثمينة، ص٢٨.

(٤) السمهودى: وفاء الوفاء، جـ٣، ص٨٣٩.

(٥) ابن النجار: الدرة الثمينة، ص٣٣.

(٦) الأنصارى: آثار المدينة، ص١٣٤.

(٧) الأنصارى: آثار المدينة، ص١٢٥.

مسجد القبلتين:

يقع هذا المسجد على هضبة مرتفعة من حرة الوبرة فى طرفها الشمالى الغربى بالنسبة للمدينة[1]. وينقسم مسجد القبلتين فى شكله إلى قسمين: داخلى وخارجى، فالقسم الداخلى منه به محراب واجهته للكعبة، والقسم الخارجى به محراب واجهته إلى بيت المقدس[2].

وقد بنى هذا المسجد فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيه صلى مستقبلا بيت المقدس، وفيه أيضا أمره الله سبحانه وتعالى بتحويل القبلة الى الكعبة، ولهذا السبب سمى القبلتين[3].

وقد جدد بناؤه فى عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان، الذى أمر باصلاح الخراب الذى حدث فيه[4]. وفى عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز أمر بتجديد بنائه، وقد أرسل له الرخام من الشام لعمل الاسطوانات الداخلية[5].

وفى عهد الخليفة أبى جعفر المنصور أمر بتجديد بناء هذا المسجد وقام بتوسيعه وأمر ببناء مئذنة به، كما أمر الخليفة هارون الرشيد باصلاحه وببناء بركة ليشرب منها الحجاج الماء، وبركة أخرى من أجل الوضوء[6]. وقد جدد بناؤه فى عهد الخليفة المتوكل، وهذا آخر تجديد حدث لهذا المسجد فى هذه الفترة الزمنية.

مسجد السقيا:

اختطه الرسول صلى الله عليه وسلم بجوار بئر السقيا بطرف حرة الوبرة وصلى

---

(١) الأنصارى: آثار المدينة، ص ١٢٦.

(٢) المرجع السابق، ص ١٢٧.

ـ ابراهيم العياشى: المدينة بين الحاضر والماضى، ص ٤١٨.

كان ذلك الوضع بالمسجد الأول فى زمن الرسول صلى الله عله وسلم، أما المسجد الحالى فلا توجد به سوى محراب يتجه نحو الكعبة، وبناؤه الحالى يرجع الى العصر العثمانى).

(٣) ابراهيم العياشى: المدينة بين الحاضر والماضى، ص ٤١٩.

(٤) الأنصارى: آثار المدينة، ص ١٢٧.

(٥) المرجع السابق، ص ١٢٨.

(٦) المراغى: تحقيق النصرة، ص ١٨٤.

فيه، وقد دعا لأهل المدينة فى هذا المسجد بالبركة. وتوجد بداخل هذا المسجد قبة شهيرة تسمى قبة الأعاجم، نسبة الى من أمر ببنائها وهو عضد الدولة بن بويه لأن من قام ببنائها من الأعاجم البائين، فبنيت على طراز عجمى[١].

وقد جدد بناؤه بأمر من صلاح الدين الأيوبى حينما أخبره أمير الحج ببعض الخراب الذى حدث لهذا المسجد فأمر باصلاحه وتجديد بعض مبانيه[٢].

مسجد الاجابة :

ويقع فى مكان مرتفع شمال البقيع وبجواره حفر بئر يسمى (بئر ذات سليم) نسبة إلى من حفرها، وهو سليم الأوسى الأنصارى[٣]، وسمى مسجد الإجابة لأن النبى صلى الله عليه وسلم، دعا ربه فاستجاب لدعائه[٤]. وقد جدد بناؤه فى عهد الخليفة أبى جعفر المنصور فى عهد الخليفة هارون الرشيد[٥]. أما فى عهد الخليفة المعتصم فقد تم بناء بركة بجوار بئر ذات سليم ليشرب منها الحجاج أثناء زيارتهم لهذا المسجد[٦].

مسجد الشمس :

يقع شرقى المدينة، وسمى بمسجد الشمس لأن الشمس تشرق من جهته حينما تشرق على المدينة، وقد بنى فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ومكث فيه عليه الصلاة والسلام ست ليال أثناء حصاره ليهود بنى النضير، ولذلك يقصده الحجاج للتبرك[٧]. وقد جدد بناء هذا المسجد فى عهد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه[٨]. وفى عهد الخليفة هارون الرشيد مدت اليه قناة عين الزرقاء وعمل لها بركة

---

(١) السمهودى: وفاء الوفاء، جـ٣، ص ٨٤١.

(٢) السمهودى، وفاء الوفاء، جـ٣، ص ٨٤٢.

(٣) الأنصارى: آثار المدينة، ص ١٢٨.

(٤) السمهودى: وفاء الوفاء، جـ٣، ص ٨٤٣.
ـ المراغى: تحقيق النضرة، ص ١٨٥.

(٥) الأنصارى: آثار المدينة، ص ١٢٨.

(٦) المرجع السابق، ص ١٢٩.

(٧) المراغى: تحقيق النضرة، ص ١٨٦.

(٨) ابن شبه: تاريخ المدينة المنورة، جـ١، ورقة ١٠٠.

خارج المسجد كى يستفيد منها الحجاج فى الوضوء[1]. هذا ولم تتحدث المصادر عن أية اصلاحات حدثت لهذا المسجد فى الحقبة الزمنية التى تخص هذا البحث.

أعطيات الخلفاء لولاة المدينة :

استمرت المدينة عاصمة للدولة الاسلامية منذ نشأتها حتى نهاية خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه، وبعد أن تولى على بن أبى طالب كرّم الله وجهه، الخلافة نقل عاصمة دولته إلى الكوفة وأصبحت المدينة ولاية من ولايات الدولة الاسلامية، ولكنها تمتاز عن غيرها بحرمتها الدينية، وبما فيها من مقدسات يعظمها المسلمون، ويتوجهون إليها فى أيام األحج وغيرها من أيام السنة للزيارة[2].

ولما آلت الخلافة إلى البيت الأموى، حرص معاوية بن أبى سفيان على كسب تأييد أهل المدينة له، فعمل على ارسال أعطيات كثيرة مع أمير الركب الشامى لسكان المدينة، كما حرص على أن يكون واليه على المدينة من آل بيته حتى لا تحدث فتنة. وسار على نهج معاوية حلفاء البيتِ الأموى من بعده[3].

وعندما تولى بنو العباس الخلافة كان العلويون فى المدينة كثيرا ما يثيرون الاضطرابات ضدهم، لذلك اهتم الخلفاء العباسيون الأوائل بارسال الأعطيات إلى سكان المدينة ليضمنوا ولاءهم[4].

ففى سنة ١٤٠هـ حج أبوجعفر المنصور وأغدق أعطيات على سكان المدينة، ويقال إنه كساهم جميعا، ووزع عليهم صحائف من الذهب والفضة، كما يقال إنه لما حج سنة ١٥٢هـ قدم صدقات لأهل المدينة وكساهم بأكثر من ستين ألف دينار[5].

---

(١) المراغى: تحقيق النضرة، ص ١٨٧.
- الأنصارى: آثار المدينة، ص ١٣٠.

(٢) الجزيرى: درر الفوائد، ص ١٩٤.

(٣) أحمد الشريف: درر الحجاز السياسى، ص ٢١٥.

(٤) الجزيرى: درر الفوائد، ص ١٩٦.

(٥) المرجع السابق، ص ١٩٩، ٢٠٣.

وقـد واصـل خلفاء البيت العباسى الأوائل ارسال أعطياتهم بعد ذلك إلى والى المدينة وسكانها وجعلوا الوالى مستقلا لكى يستطيع اخماد الفتن والثورات التى تظهر فيها من آن لآخر[1].

وفى سنة ١٦٠هـ حج الخليفة المهدى وقام بتوزيع الأعطيات على سكان المدينة حتى بلغت الأموال التى أنفقها ثلاثين ألف دينار وصلت اليه من مصر ألف دينار ووصلت البقية من اليمن[2].

وفى سنة ١٧٠هـ حج الخليفة هارون الرشيد، وقام بتوزيع أعطيات على سكان المدينة، ويقال إنه لم يترك بيتا واحدا من بيوت المدينة الا وأغدق عليه من أعطياته[3].

وفى سنة ١٧٧هـ حج هارون الرشيد ماشيا ـ كما يذكر المؤرخون ـ وقد أغدق فى الأعطيات والملابس المصنوعة فى اليمن خصيصا لأهل المدينة[4].

وفى سنة ١٨٦هـ وزع الرشيد على أهل المدينة صدقات لم توزع مثلها من قبل. وحجت أيضا فى نفس العام زوجته السيدة زبيدة، وقامت بتوزيع صدقات على نساء المدينة ـ هذا وتعد السيدة زبيدة أول سيدة تقوم بتوزيع الأعطيات على سكان المدينة[5].

وفى سنة ٢٠٨هـ حجت السيدة زبيدة للمرة الثانية، وأنفقت أموالا كثيرة على أهل المدينة، وقيل انها لم تترك بيتا فى المدينة إلا وأغدقت عليه الأعطيات[6].

---

(١) ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة المنورة، ورقة ٦١.
ـ العباس: عمدة الأخبار، ص٢١٣.

(٢) السمهودى: وفاء الوفاء، جـ ١، ص ٣١٠.
ـ المقريزى: الذهب المسبوك، ص ٤٤.

(٣) السمهودى: وفاء الوفاء، جـ ١، ص ٣٢١.

(٤) ابن الأثير: الكامل، جـ ٦، ص ١٢١.

(٥) ابن الأثير: الكامل، جـ ٦، ص ٤٢٠.
ـ المقريزى: الذهب المسبوك، ص ٥١.

(٦) الجزيرى: درر الفوائد، ص ٢٢٦.

وفى سنة ٢١٢هـ حج الخليفة المأمون، وقام بتوزيع الأعطيات على سكان المدينة، كما اهتم ببناء القلاع والحصون للدفاع عنها[١].

ومن الجدير بنا الاشارة إلى أن السبب فى اغداق الخلفاء العباسيين الأوائل أعطياتهم على أهل المدينة يرجع إلى محاولتهم كسب ولائهم وتأييدهم السياسى، حيث أن كثيرا من أفراد البيت العلوى كانوا يسكنون المدينة ويقومون من وقت لآخر بالخروج على الخلفاء العباسيين.

وظلت السيادة المباشرة للعباسيين على المدينة قائمة، ولمزيد من الولاء، وضمان الخضوع، أسند الخليفة العباسى ولاية الحجاز (مكة والمدينة) إلى محمد بن طفح الأخشيدى[٢]. وقد كان يقيم فى المدينة بعض من أبناء الحسين بن على بن أبى طالب كرم الله وجهه، الذين ظلوا يتحينون الفرص للاستقلال بولايتها كما فعل بنو سليمان فى مكة، ولكنهم لم يملكوا من أسباب القوة ما يساعدهم على تحقيق أغراضهم، ولما قدم عليهم من مصر طاهر بن مسلم، أحد أحفاد الحسين بن على ولوه أميرا عليهم، وما لبث طاهر أن استقل بامارة المدينة سنة ٣٦٠هـ، ولم تستطع الخلافة العباسية مقاومته بسبب ضعفها[٣].

ومنذ هذه السنة أعلن طاهر ولاءه للخليفة الفاطمى المعز لدين الله الذى أقيمت الخطبة باسمه من فوق منبر الحرم النبوى الشريف، وبدأ المعز لدين الله فى ارسال الأموال والأعطيات إلى أمير المدينة وأهلها لكى يضمن ولاءهم وليضفى على سيادته على المدينة الصبغة الشرعية[٤].

واستمرت الخطبة تقام فى المدينة باسم الخليفة الفاطمى المعز لدين الله حتى توفى

---

(١) الجزيرى: درر الفوائد، ص ٢٢٧.
(٢) محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص ٢١.
ـ سيدة اسماعيل كاشف: مصر فى عصر الأخشيديين، ص ١٥٣.
(٣) محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص ٢٢.
(٤) ابن خلدون: العبر، جـ ٤، ص ١٠٩.

سنة ٣٦٥هـ وخلفه ابنه العزيز بالله الذى انقطعت الخطبة باسمه فى المدينة عامين[١].
وفى سنة ٣٦٧هـ بعث العزيز بالله ادريس ابن زيزى الصنهاجى أميرا على الحج فاستطاع أن يعد الخطبة باسمه[٢]. وظل الأمر بعد ذلك مستقرا فى المدينة حتى وفاة أميرها طاهر بن مسلم سنة ٣٨١هـ . وقد خلفه فى الامارة ابنه الحسين الذى سار على نهج أبيه فى تبعيته للفاطميين، كما ظل الفاطميون يرسلون أعطيات اليه والى أهل المدينة[٣].

وفى سنة ٣٨٦هـ توفى الخليفة الفاطمى العزيز بالله وخلفه ابنه الحاكم بأمر الله الـذى أعلن أمـير المدينة طاعته له، وأقام الخطبة باسمه، فأرسل الحاكم بأمر الله الأعطيات إلى المدينة، بل زاد عما كان يرسله والده اليها[٤].

وعلى الرغم من أن الخليفة العباسى القادر بالله، قام بارسال الأعطيات إلى أمير المدينة لكي يستعين سلطان العباسيين عليها وتقام الخطبة باسمه بدلا من الخليفة الفاطمى، الا أن أمير المدينة رفض ذلك، فما كان من الخليفة العباسى الا أن أرسل إلى المدينة جيشا قضى على امارة بنى مهنا، غير أنه ما أن خرجت قوات العباسيين من المـدينـة حتى استطاعت أسرة بنى مهنا استعادتها وبادرت باعلان ولائها وطاعتها للخلافة الفاطمية[٥].

واستمر خلفاء البيت الفاطمى فى ارسال الأعطيات إلى أمير المدينة لكى يضمنوا دوام سلطانهم عليها. هذا وقد كان لدى بنى مهنا رغبة فى استمرار تبعيتهم للدولة الفاطمية وعدم اقامة الدعوة للبيت العباسى[٦].

وفى سنة ٤٠٠هـ أرسل الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله إلى الأمير سالم بن مهنا

(١) محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص ٢٣.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٤.
(٣) الجزيرى: درر الفوائد، ص ٢٤٧.
(٤) المصدر السابق، ص ٢٤٨.
(٥) المصدر السابق، ص ٢٤٩.
(٦) الجزيرى: درر الفوائد، ص ٢٥١.

أمير المدينة يأمره بفتح دار جعفر الصادق وارسال ما فيها إلى القاهرة، ولكن الأخير رفض هذا الطلب وخرج من طاعة الخليفة الفاطمى وأعاد الخطبة للخليفة العباسى . وحينما علم الخليفة الفاطمى بذلك أرسل اليه الأعطيات وعاتبه على ما قام به من حذق لاسمه فى الخطبةفأعاد أمير المدينة ولاءه للخليفة الفاطمى[1] .

وظل خلفاء البيت الفاطمى يواصلون أعطياتهم إلى أمير المدينة حتى العصر الفاطمى الثانى ، إذ أن الخلفاء الفاطميين ووزراءهم لم ينصرفوا انصرافا تاما عن نشر الدعوة لهم فى بلاد الحجاز على الرغم من ضعف دولتهم وانكماش حدودها فى هذا العصر، كما ظل أمراء المدينة على ولائهم للفاطميين بصفة عامة ولم يخرجوا عن طاعتهم لهم الا فى سنوات قليلة جدا عندما كانت الخلافة العباسية تنافس الفاطميين فى ارسال الأعطيات اليهم . وقد بدأ هذا التنافس منذ سنة ٤٩١هـ وهى السنة التى أرسل فيها الخليفة العباسى المستظهر بالله أعطياته إلى أمير المدينة الذى قام من جهته باقامة الخطبة باسمه بدلا من الخليفة الفاطمى[2].

وعلى الرغم من استمرار العباسيين فى أعطياتهم إلى أمير المدينة مقابل اقامة الخطبة باسمهم ، فان أمير المدينة وأهلها لم ينحازوا إلى الخلفاء العباسيين فى مناهضة الخلافة الفاطمية، بل حرصوا على اظهار ولائهم للخلفاء الفاطميين كلما جاءتهم الفرصة، وذلك يرجع إلى تأثير الدعوة الشيعية التى بذل الدعاة الفاطميون فى نشرها جهدا كبيرا. كما أن الخلفاء الفاطميين كانوا يعنون بنشر الأمن والسكينة فى الأراضى المقدسة بالاضافة الى صلة القرابة بين أشراف المدينة وخلفاء الدولة الفاطمية[3].

هذا ولم يقترن التنافس بين العباسيين والفاطميين على بسط نفوذ كل منهما على الأراضى المقدسة بالحجاز بمظاهر العنف والقوة على الرغم من حرصهم على ذلك، وانما اكتفى كل فريق بأن تقام الخطبة باسمه من فوق منابر الحرمين الشريفين وفى

(١) العباس: عمدة الأخبار، جـ ٥، ص ١٢٣ .

(٢) أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، جـ ٥، ص ١٠٣ .

(٣) محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص ٣٤ .

عرفات، ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أن بنى العباس والفاطميين رأوا أن لا يجعلوا الأراضى المقدسة بالحجاز ميدانا لاظهار ما بينهم من عداوة وبغضاء[١].

وقد اقتصر اهتمام الخلفاء الفاطميين فى نشر سلطانهم فى بلاد الحجاز على الناحية الدينية المتمثلة فى الخطبة، وكان غرضهم من ذلك هو توطيد أركان خلافتهم واستمالة العالم الإسلامى الى جانبهم حيث إن المسلمين جميعا كانوا ينظرون إلى الخلفاء أصحاب السيادة على الأراضى المقدسة نظرة إجلال وتقدير[٢].

وبعد سقوط الدولة الفاطمية فى سنة ٥٦٧هـ وعودة السيادة العباسية على الحجاز ظل ولاة المدينة يقيمون الأذان (بحى على خير العمل) إلى أن أمرهم السلطان صلاح الدين فى سنة ٥٧٢هـ بحذف هذه العبارة من الأذان[٣].

واستطاع صلاح الدين الاحتفاظ بالحجاز بعد أن أقره الخليفة العباسى المستضىء بأمر الله فى سنة ٥٧١هـ وذلك بفضل سياسته التى انتهجها ازاء أهل الحجاز والتى تتمثل فى اغداق الأموال والأعطيات عليهم، وفيما يختص بالمدينة فقد واصل صلاح الدين ارسال الأموال والأعطيات إليها وإلى الأعراب الذين يقطنون على امتداد طريق الحج[٤]. كما تتمثل هذه السياسة فى عدم تدخل صلاح الدين وسلاطين الأيوبيين من بعده فى شؤون الامارة سواء فى المدينة أو فى مكة[٥].

وحاول الصليبيون أن يضربوا صلاح الدين بوصفه حاميا للديار الاسلامية المقدسة وأقوى أعدائهم وأن يطعنوا المسلمين فى مقدساتهم، فوضعوا خطة لغزو المدينة وإخراج جسد الرسول صلى الله عليه وسلم والتمثيل به وذلك لاذلال صلاح الدين من ناحية، ولصرف نظره عن محاربتهم فى الشام من ناحية أخرى[٦].

(١) محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجيه ص ٣٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٥.

(٣) الجزيرى: درر الفوائد، ص ٢٦١.

(٤) ابن جبير: الرحلة، ص ٥٥.

(٥) البتنونى: الرحلة الحجازية، ص ٧٤.

(٦) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢ ص ٧٨٧.

وقد بدأت أولى هذه المحاولات سنة ٥٧٧هـ حينما أراد أرناط أمير الكرك الصليبي المسير إلى تيماء ودخول المدينة إلا أن عزالدين فرخشاه خرج اليه من دمشق وألحق به هزيمة جعلته يعود على أعقابه. ورغم ذلك عاد أرناط من جديد إلى محاولته فعبر بحر القلزم إلى عيذاب سنة ٥٧٨هـ وقتل وأسر وسار يريد المدينة، وبلغ ذلك صلاح الدين وهو فى حران، فبعث إلى نائبه على مصر سيف الدولة بن منقذ يأمره بتجهيز الحاجب حسام الدين لؤلؤ لرد عدوان أرناط وسار حسام الدين إلى ايله وأحرق أسطول الفرنج الموجود فيها، ثم تتبع أرناط واشتبك معه فى قتال مرير بشاطىء الحوراء أمام رابغ(١). وقد انتهى القتال بهزيمة أرناط وقتل عدد كبير من رجاله، وأسر من تبقى منهم. وقد قتل بعضهم واقتاد البعض الآخر إلى مصر، كما بعث برجلين من أعيان الفرنج إلى منى، وهناك نحرا كما تنحر البدن، فى حين عاد إلى مصر ومعه بقية الأسرى، حيث أمر صلاح الدين بقتلهم ليكونوا عبرة لكل من تحدثه نفسه على حرم الله وحرم رسوله صلى الله عليه وسلم(٢).

وحينما توفى صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ قسمت المملكة بين أخيه العادل وأولاده، وبدأت تطورات جديدة فى العلاقة بين مصر الأيوبية وبين ولاة الحجاز. فقد تدخل خلفاء صلاح الدين فى شؤون مكة مما أدى إلى نشوء نزاع مع ولاتها، أما ولاة المدينة فقد ظلوا موالين للأيوبيين ولم يخرجوا عن طاعتهم(٣).

ولقد استمر النزاع على ولاية مكة حتى تم القضاء على أسرة الهواشم وتولى أمر مكة أبوعزيز قتادة بن ادريس الذى حاول أن يضم ولاية المدينة اليه فجهز جيشا فى سنة ٦٠٧هـ بقيادة ابنه عزيز من أجل الاستيلاء على امارة المدينة، ولكن قاسم بن مهنا الحسينى استطاع أن يتصدى له وعادت الحملة ولم تحقق أغراضها(٤).

وقد ناصر الأيوبيون والى المدينة بالمال والسلاح ليستطيع مواجهة الشريف قتادة

---

(١) وهى مدينة تقع بساحل الحجاز فى الطريق بين مكة والمدينة.

(٢) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ٢، ص ٧٨٩.

(٣) المقريزى: الخطط، جـ ٢، ص ٨٥.

(٤) العباس: عمدة الأخبار، ص ١٨٠.

بعد ذلك[1]، ومضى الخلاف بين قتادة وقاسم والى المدينة فى طريقه إلى أن جاء عام ٦١٢هـ جهز قتادة جيشا قاده بنفسه واتجه به إلى المدينة وحاصرها وأباد كثيرا من مزارعيها، وكان سالم بن مهنا فى بلاد الشام، ولما وصله الخبر، عاد ومعه جيش أرسله الملك عيسى ابن العادل الأيوبى صاحب حلب، واستطاع أن يوقع الهزيمة بقتادة وأسر كثيرا من الأشراف الحسنيين وأخذهم إلى دمشق[2]. وبهذا انتهى الخلاف الذى حدث بين قتادة والى مكة وبين قاسم والى المدينة ولم تظهر بعد ذلك محاولة للتصدى لولاة المدينة من قبل أشراف مكة[3].

وعلى أثر قيام دولة بنى رسول فى اليمن سنة ٦٢٦هـ بدأ الملك المنصور يوجه عنايته للسيطرة على الحجاز. وفى سنة ٦٣٦هـ زحف على رأس حملة عنيفة على الحجاز، ولكن والى المدينة لم يصل معه وظل مع الأيوبيين، وأما والى مكة فقد انضم له وقد سبق الاشارة إلى ذلك[4].

وفى سنة ٦٣٧هـ أرسل الملك الكامل الأيوبى النجدة إلى أمير المدينة من أجل أن يقضى على بنى رسول فى مكة، ولكن جيش بنى رسول استطاع أن يقضى على هذه القوة[5].

وظل أمراء المدينة موالين للأيوبيين حتى سقوط دولتهم سنة ٦٤٨هـ وعلى إثر ذلك دخلوا فى طاعة بنى رسول الذين أخذوا يغدقون عليهم الأعطيات مقابل إقامة الخطبة باسمهم من فوق منبر الحرم النبوى الشريف. واستمر الأمر على ذلك إلى أن دخلت الحجاز تحت السيادة المملوكية فى عهد السلطان المملوكى الظاهر بيبرس[6].

---

(١) المقريزى: الخطط. جـ٢، ص٨٦.
(٢) العباس: عمدة الأخبار، ص١٨٣.
(٣) السباعى: تاريخ مكة، جـ١، ص٢١٤.
(٤) ابن الضيا: قرة العيون، جـ٢، ص٢٢، تحقيق محمد بن على الأكوع.
(٥) المصدر السابق، جـ١، ص٥٨.
- المقريزى: الذهب المسبوك، ص٨٣.
(٦) ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص٣٨٦.
- دحلان: خلاصة الكلام، ص٢٨.
- على بن حسين السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص٢١.

قوائم المصادر والمراجع

أولا : المصادر الخطية :

١ - الخزاعى : لم يعرف التاريخ

الدلالات السمعية: مخطوط بدار الكتب المصرية، تاريخ تيمور ٦٣٨ .

٢ - الرشيدى : لم يعرف التاريخ

حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولى امارة الحاج، مكتبة الحرم المكى رقم ١١ تاريخ .

٣ - الأسدى : ت ١٠٦٦هـ

أخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام، مكتبة الحرم المكى، رقم ٢٣ تاريخ .

٤ - ابن شبه : ت ٢٦٢هـ

تاريخ المدينة ، مكتبة الخانقاه الأحمدية بالمدينة المنورة، رقم ١٥٧ .

٥ - الصباغ : ت ١٣٢١هـ

تحصيل المرام فى أخبار بيت الحرام، مكتبة الحرم المكى، رقم ٤٨ تاريخ .

٦ - ابن الضياء : ت ٨٥٤هـ

تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة المنورة، دار الكتب المصرية، رقم ١٥٧٠ تاريخ .

٧ - المالكى : ت ١١٠٧هـ

الشافى الصغير، مكتبة آل المالكى ، وهى ملك أبناء محمد جمال المالكى بمكة المكرمة .

٨ - ابن فهد : ت ٨٨٥هـ
اتحاف الورى بأخبار أم القرى، أربعة أجزاء، مكتبة الحرم المكى، رقم ٥٤ تاريخ.

ثانيا : المصادر المطبوعة :

١ - ابن الأثير : ت ٦٣٠هـ
الكامل فى التاريخ، ١٢ جزء، بيروت، ١٩٦٦م.

٢ - الأزرقى :
أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، جزئين، دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٩م.

٣ - البلاذرى :
فتوح البلدان، ٣ أجزاء، القاهرة، ١٣١٨هـ.

٤ - ابن بطوطة :
تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (الرحلة)، القاهرة، ١٩٦٧م.

٥ - الجزيرى :
درر الفوائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، القاهرة، ١٣٨٤هـ.

٦ - ابن جبير :
الرحلة، دار التراث، بيروت، ١٩٦٨م.

٧ - الحلبى :
السيرة الحلبية، القاهرة، ١٣٤٩هـ.

٨ - ابن حوقل :
صورة الأرض، ليدن، ١٩٢٨م.

٩ ـ ابن خلـــدون :
العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، دار الكتب، ١٩٦٧م.
١٠ ـ الخطيب البغدادى:
تاريخ بغداد ومدينة السلام، القاهرة، ١٣٤٩هـ .
١١ ـ ابن خلكان:
وفيات الأعيان، بولاق، ١٢٨٣هـ .
١٢ ـ دحـــلان :
خلاصة الكلام فى بيان أمراء البيت الحرام، القاهرة، ١٣٠٥هـ .
١٣ ـ الزبيــدى :
تاج العروس شرح القاموس، بيروت، ١٩٦٤م.
١٤ ـ الســمهودى :
وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد، بيروت، ١٩٦٨م.
١٥ ـ سبط بن الجوزى :
مرآة الزمان، طبعة الهند، ١٣٥١هـ .
١٦ ـ ابن سيد الناس:
عيون الأثر فى فنونالمغازى والشمائل والسير، بيورت، ١٩٦٠م.
١٧ ـ الســيوطى :
تنوير الحوالك شرح موطأ مالك، القاهرة، ١٩٦٦م.
١٨ ـ أبو شـامة :
الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية، القاهرة، ١٩٦٢م.
١٩ ـ ابن شـداد :
النـوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٤م.
٢٠ ـ الشهرستانى :
الملل والنحل، بيروت، ١٩٦٧م.

٢١ ـ الاصطخـرى :
مسالك الممالك، طبعة القاهرة، ١٩٦١م.
٢٢ ـ ابن الضيـاء:
قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد على الأكوع، القاهرة، ١٩٦٤م.
٢٣ ـ الطبـرى :
تاريخ الأمم والملوك، القاهرة، ١٩٦٧م.
٢٤ ـ ابن ظهيرة :
الجامع اللطيف فى فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف، بيروت، ١٩٧٢م.
٢٥ ـ العبـاسـى :
عمدة الأخبار فى مدينة المختار، الطبعة الخامسة، المدينة المنورة، ١٣٥٩هـ .
٢٦ ـ ابن عبد ربه :
العقد الفريد، بيروت، ١٩٦٩م.
٢٧ ـ ابن العماد الحنبلى :
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، القاهرة، ١٩٥١م.
٢٨ ـ أبو الفـدا :
المختصر فى أخبار البشر، بيروت، ١٩٧٠م.
٢٩ ـ الفاســى :
شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، القاهرة، ١٩٥٦م.
٣٠ ـ . . . .
العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين، تحقيق فؤاد سيد، القاهرة، ١٩٦٦م.
٣١ ـ الفاكهــى :
المنتقى فى أخبار أم القرى، بيروت، ١٩٦٧م.

٣٢ - القلقشندى :
صبح الأعشى فى صناعة الانشا، القاهرة، ١٩١٩م.
٣٣ - ابن قتيبة :
المعارف، القاهرة، ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م.
٣٤ - ابن كثير :
البداية والنهاية، دار العلم، بيروت، ١٩٦٠م.
٣٥ - المسعودى :
مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد، القاهرة، ١٩٤٨م.
٣٦ - محب الدين الطبرى :
القرى لقاصد أم القرى، تحقيق مصطفى السقا، القاهرة، ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م.
٣٧ - أبو المحاسن :
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، القاهرة.
٣٨ - المراغى :
تحقيق النضرة بلتخيص معالم دار الهجرة، صححه وحققه محمد عبدالجواد الأصمعى، القاهرة، ١٩٥٥م.
٣٩ - المقدسى :
أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، بيروت، ١٩٦٦م.
٤٠ - المقريزى :
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، القاهرة، مطبعة الحلبى.
٤١ - المقريزى :
اتحاف الحنفاء بأخبار الأئمة الخلفاء، نشر الدكتور جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٤٨م.
٤٢ - ....

الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٥٥م.

٤٣ ـ النويـرى :

نهاية الأرب فى فنون الأدب، دار الكتب، القاهرة، ١٩٤٣م.

٤٤ ـ ابن النجـار :

الدرة الثمينة فى تاريخ المدينة، القاهرة، ١٩٥٦م.

٤٥ ـ النهروالى :

الأعلام بأعلام بيت الله الحرام، بيروت، ١٩٦٣م.

٤٦ ـ ناصر خسرو :

سفر نامة، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة، ١٩٤٥م.

٤٧ ـ ابن هشـام :

السيرة النبوية، راجع أصولها وعلق عليها: محمد محيى الدين عبدالحميد، مطبعة حجازى، القاهرة.

٤٨ ـ الواقـدى :

مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم، طبعة كلكتا، ١٩٤٨م.

٤٩ ـ اليعقـوبى :

تاريخ اليعقوبى، بيروت، ١٩٦٠م.

٥٠ ـ ياقـوت :

معجم البلدان، بيروت، ١٩٥٠م.

ثالثا : المراجع الحديثة :

١ ـ ابراهيم رفعت :

مرآة الحرمين، دار الكتب المصرية، ١٩٢٥م.

٢ ـ ابراهيم على العياشى :

المدينة بين الماضى والحاضر، دمشق، ١٩٧٣م.

٣ ـ أحمد ابراهيم الشريف: دكتور
مكة والمدينة فى الجاهلية وعصر الرسول صلى الله عليه وسلم، القاهرة، ١٩٦٥م.
٤ ـ ....
درر الحجاز فى الحياة السياسية العامة فى القرنين الأول والثانى الهجرى، القاهرة، ١٩٦٨م.
٥ ـ أحمد السباعى:
تاريخ مكة من الناحية السياسية والاجتماعية والعمرانية، مكة، ١٣٨٥هـ.
٦ ـ أحمد السعيد سليما، دكتور
تاريخ الدولة الاسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة، القاهرة، ١٩٦٦م.
٧ ـ حافظ وهبة:
جزيرة العرب فى القرن العشرين، القاهرة، ١٩٤٦م.
٨ ـ حسن ابراهيم حسن، دكتور
تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى، القاهرة، ١٩٤٦م.
٩ ـ ....
الفاطميون فى مصر، القاهرة، ١٩٣٣م.
١٠ ـ الحسن الباشا، دكتور
الألقاب الاسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار، مكتبة النهضة، ١٩٥٧م.
١١ ـ جواد على، دكتور
المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام، بيروت، ١٩٦٩م.
١٢ ـ خير الدين الزركلى:
الاعلام، بيروت، ١٩٧٠م.

١٣ ـ سعيد عبدالفتاح عاشور، دكتور
الحركة الصليبية، القاهرة، ١٩٦٣م.
١٤ ـ سيده اسماعيل كاشف، دكتورة
مصر فى عصر الأخشيديين، القاهرة، ١٩٦٠م.
١٥ ـ عبدالقادر ملا قلندر
الخلاصة المفيدة لأحوال عين زبيدة، القاهرة، ١٩٥٠م.
١٦ ـ عبدالقدوس الأنصارى
آثار المدينة المنورة، بيروت، ١٩٧٣م.
١٧ ـ عصام الدين عبدالرؤوف، دكتور
فى بلاد الجزيرة، القاهرة، الأولى،
١٨ ـ عطية القوصى، دكتور
تجار مصر فى البحر الأحمر منذ فجر التاريخ الإسلامى حتى سقوط بغداد، رسالة دكتوراه لم تطبع، كلية الآداب، جامعة القاهرة.
١٩ ـ على حافظ :
فصول من تاريخ المدينة، جدة، ١٩٦٩م.
٢٠ ـ على بن حسنين السليمان :
العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٧٣م.
٢١ ـ محمد أبوزهرة :
أبو حنيفة، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٥٢م.
٢٢ ـ محمد أنور شكرى، دكتور
لوحات أثرية، مطابع مكة، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.
٢٣ ـ محمد جمال الدين سرور، دكتور
قيام الدولة العربية الاسلامية فى حياة محمد صلى الله عليه وسلم، القاهرة،

٢٤ - . . . .
سياسة الفاطميين الخارجية، القاهرة، ١٩٧٣م.
٢٥ - محمد لبيب البتنونى
الرحلة الحجازية، القاهرة، ١٣٢٧هـ/ ١٩٢٩م.
٢٦ - محمود طه أبو العلا، دكتور
جغرافية الجزيرة العربية، القاهرة، ١٩٥٦م.
٢٧ - ناجى معروف، دكتور
المدارس الشرابية، ببغداد وواسط ومكة، بغداد، ١٩٦٥م.
٢٨ - يوسف أحمد،
المحمل والحج، القاهرة، ١٣٥٦هـ.

خامسا: الدوريات العلمية والمجلات:

١ - مجلة الفيصل، العدد الأول، عام ١٣٩٧هـ، رجب.
٢ - مجلة مصلحة الآثار العامة فى المملكة العربية السعودية، ١٣٩٧هـ.
٣ - مجلة رابطة العالم الإسلامى
٤ - مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، ١٩٦٨م
- أحمد دراج، دكتور
مقال ايضاحات جديدة عن التحول فى تجارة البحر الأحمر.
٥ - مجلة نهضة افريقيا:
- أحمد دراج، دكتور
مقال عيذاب
٦ - مجلة العربى، مايو ١٩٧٨م، العدد ٢٣٤:
- مصطفى نبيل
مواقع التاريخ تحت الرمال.
٧ - مفكرة مكة المكرمة لعام ١٣٩٧هـ، مكتبة المرزا بمكة.

1 - Geukens, F: Contribution. a la Geologie de yemen. Memoires d l'Instituit Geologique de L'Universite de Lourain, 1960.
2 - Powers, R.W. and others: Geology of the Arabian Peninsula. (Sedimentary Geology of Saudi Arabia). 1966.
3 - Woolley, L. Abraham - Recent Discoveries and Hebrew origins, Faber, 1936.
4 - De Gaury, G: Rulers of Mecca, 1948.
5 - Caussin De Perceval, A.P: Essai sur l'histoire des Arabes, 1847.
6 - Geoogical Times, British Museum, 1972.
7 - Italconsult, 1972.

الفهـرس

الموضوع	الصفحـة
إهـداء	٥
تقديـم	٧
المقدمـة	٩
أهم المصادر والمراجع	١٥
الفصل الأول: مكة والمدينة قبل ظهور الإسلام	٢١
أولا : مكـة المكرمـة	٢٣
نبذة جغرافية	٢٣
نبذة تاريخية	٢٧
سلطة قريش وتنظيات قصي بن كلاب	٣١
ثانيا : المدينة المنورة	٤١
نبذة جغرافية	٤١
النشاط الاقتصادى لأهل المدينة المنورة	٤٢
التجارة الداخلية والخارجية وطرق القوافل	٤٨
الفصل الثاني: خدمات الحجاج ومرافق الحج في مكة المكرمة	٥٣
توفير المياه في مكة المكرمة	٥٥
السيول وآثارها في مكة	٦٧
توفير الطعام في مكة المكرمة	٧٢

الموضوع	الصفحة

توفير السكن في مكة المكرمة ٧٦

المدارس في مكة ودورها في إسكان الحجاج ٨٤

الفصل الثالث: خدمات الحجاج ومرافق الحج في أمكنة المشاعر ٨٩

توفير الإقامة وتأمين الطعام للحجاج في المشاعر ٩١

توفير المياه في مشاعر الحج ٩٥

اعطيات الخلفاء لولاة مكة المكرمة ١٠١

الفصل الرابع: خدمات الحجاج في المدينة المنورة ١٢٣

الطريق من مكة إلى المدينة وتوفير المياه للحجاج ١٢٥

توفير المياه في المدينة المنورة ١٢٨

توفير الأطعمة للحجاج في المدينة المنورة ١٣٨

توفير السكن في المدينة المنورة في فترة الزيارة ١٤١

أمكنة الزيارة وما قدم فيها من خدمات ١٤٨

أعطيات الخلفاء لولاة المدينة ١٥٤

قوائم المصادر والمراجع ١٦٣